*

TIGHT BINDING BOOK

*

قصص عربية للأطفال

بقلم كامل كيلاني

القصة الأولى

حي بن يقظان

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

مقدمة

(١)

أَيُّهَا الصَّبِيُّ الْعَزِيزُ :

حَدِيثِي إِلَيْكَ — فِي هَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ — حَدِيثٌ طَوِيلٌ . وَلاَ غَرَابَةَ فِي ذَلِكَ ، فَقَدْ كَانَ تَرَدُّدِي طَوِيلاً فِي تَسْمِيَةِ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ الْجَدِيدَةِ ، وَكَانَتْ حَيْرَتِي شَدِيدَةً ، حِينَ هَمَمْتُ بِإِظْهَارِ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْأُولَى. ثُمَّ انْتَهَى بِيَ التَّرَدُّدُ إِلَى الْإِحْجَامِ أَوَّلاً ؛ ثُمَّ انْقَلَبَ الْإِحْجَامُ وَالتَّرَدُّدُ وَالتَّسْوِيفُ : إِقْدَاماً ، وَعَزْماً ، وَإِنْجَازاً ؛ وَرَجَعْتُ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُ ، وَآثَرْتُ أَنْ أَخْتَارَ لَهَا أَوَّلَ عُنْوَانٍ خَطَرَ بِبَالِي ، وَأُطْلِقَ عَلَيْهَا أَوَّلَ تَسْمِيَةٍ مَرَّتْ بِخَاطِرِي ؛ وَهِيَ : « قِصَصٌ عَرَبِيَّةٌ » .

وَلَعَلَّ هَذَا الْعُنْوَانَ قَدْ أَدْهَشَكَ ، فَهُوَ — كَمَا تَرَى — عُنْوَانٌ غَرِيبٌ ، يَسْتَرْعِي الِانْتِبَاهَ ، وَيَدْعُو إِلَى التَّسَاؤُلِ وَالْمُنَاقَشَةِ . وَإِنِّي لَأَكَادُ أَلْمَحُ مَا يَدُورُ بِخَلَدِكَ مِنْ وُجُوهِ الِاعْتِرَاضِ عَلَى هَذِهِ التَّسْمِيَةِ . أَلَسْتَ تَقُولُ — فِي نَفْسِكَ — : « إِنَّ كُلَّ الْقِصَصِ الَّتِي أَنْشَأْتُهَا لَكَ ، أَوْ تَرْجَمْتُهَا ، أَوْ قَبَسْتُهَا مِنَ اللُّغَاتِ الْأُورُبِّيَّةِ : عَرَبِيَّةُ اللُّغَةِ ؟ » أَلَسْتَ تَرَى أَنِّي قَدْ صُغْتُهَا لَكَ صِيَاغَةً عَرَبِيَّةً ، أَصِيلَةً فِي الْعُرُوبَةِ ، لَا تَشُوبُهَا عُجْمَةٌ ، وَلَا تُفْسِدُهَا تِلْكَ الْعَامِّيَّةُ الْمُتَفَشِّيَةُ فِي أَغْلَبِ الْقِصَصِ

الَّتِي يُحَاوِلُ أَكْثَرُ الْمُنْشِئِينَ أَنْ يُقَدِّمُوهَا لَكَ، فِي بَيَانٍ مُضْطَرِبِ رَكِيكٍ، وَأَلْفَاظٍ سُوقِيَّةٍ مُسْتَهْجَنَةٍ، وَأُسْلُوبٍ يَجْمَعُ — إِلَى ضَعْفِ التَّرْكِيبِ — تَفَاهَةَ الْمَعْنَى، والْتِوَاءَ التَّعْبِيرِ ؟ أَلَيْسَ هَذَا بَعْضَ مَا يَدُورُ بِخَلَدِكَ، وَيَجُولُ بِخَاطِرِكَ ؟

فَاعْلَمْ — عَلِمْتَ الْخَيْرَ، وَأُلْهِمْتَ الرُّشْدَ وَالسَّدَادَ — أَنِّي مُقِرُّكَ عَلَى كُلِّ مَا رَأَيْتَهُ، وَذَهَبْتَ إِلَيْهِ؛ وَأَنَّنِي لَمْ أُنْشِئْ لَكَ هَذِهِ الْمَكْتَبَةَ الْعَرَبِيَّةَ الْحَافِلَةَ، إِلَّا رَغْبَةً فِي تَحْبِيبِ هَذِهِ اللُّغَةِ الْكَرِيمَةِ إِلَى نَفْسِكَ؛ وَأَنَّنِي لَمْ أَقِفْ أَكْثَرَ جُهُودِي، وَأَنْفَسَ وَقْتِي، فِي سَبِيلِ إِنْشَاءِ هَذِهِ الْقِصَصِ؛ إِلَّا لِأَحْمِيَكَ مِنْ ذَلِكَ الْبَيَانِ الْمُشَوَّهِ الْمُضْطَرِبِ، وَأُجَنِّبَكَ — مُنْذُ نَشْأَتِكَ — هَذَا الشَّرَّ الْمُسْتَطِيرَ الَّذِي طَالَمَا غَمَرَنَا فِي مُسْتَهَلِّ نَشْأَتِنَا، وَلَا يَزَالُ يَغْمُرُ النَّاشِئِينَ مِنْ بَعْدِنَا، فَيَقْضِي عَلَى مَوَاهِبِهِمْ — أَوْ يَكَادُ — فِي زَمَنِ حَدَاثَتِهِمْ. وَلَقَدْ أَخَذْتُ نَفْسِي بِتَهْذِيبِكَ وَتَثْقِيفِكَ، وَإِبْعَادِكَ عَنْ هَذَا السَّيْلِ الْعَامِّيِّ الْجَارِفِ؛ حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنُّكَ: صَارَتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ سَلِيقَةً لَكَ وَطَبْعًا، وَأَصْبَحَ الْبَيَانُ الْعَرَبِيُّ عَادَةً فِيكَ وَمَلَكَةً، وَبَرِئْتَ مِنْ تِلْكَ الْعُجْمَةِ الْمُتَفَشِّيَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، بَيْنَ شَبَابِ الْجِيلِ وَفِتْيَانِهِ. وَمَتَى تَمَّ لَكَ ذَلِكَ، أَصْبَحْتَ جَدِيرًا بِتَأْمِيلِنَا فِيكَ، وَلَمْ تُقَصِّرْ — فِي قَابِلِ أَيَّامِكَ — عَنْ تَمْهِيدِ طَرِيقِ الثَّقَافَةِ وَالْعِلْمِ لِأَبْنَاءِ جِيلِكَ الْقَادِمِ.

(٢)

لعلّكَ تطْمَعُ أنْ أزيدَ !

لَسْتُ أشُكُّ في ذَلِكَ ، فإنَّكَ لا تَزَالُ تَنْتَظِرُ مِنّي جَوابَ سُؤالِكَ ، ولَكَ الْحَقُّ كلُّهُ ، فَإِنَّنِي لَمَّا أجِبْ عَلَيْهِ . وَإِنّي — إنْ شَاءَ اللّهُ — مُجِيبُكَ بِمَا يَشْفِي غُلَّتَكَ ، وَيَرْوِى ظَمَأَكَ ، وَيُزِيلُ حَيْرَتَكَ .

أَرَاكَ تَسْأَلُنِى - مَدْهُوشاً - : « إِذَا صَحَّ مَا تَقُولُهُ ، وَهُوَ - فِيما أرَى - صَحِيحٌ ، فَمَا بَالُكَ خَصَصْتَ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةَ ، بِأَنَّهَا : عَرَبِيَّةٌ ؟ » وَجَوَابِي إِلَيْكَ : أَنِّى لَمْ أُطْلِقْ عَلَيْهَا هَذِهِ التَّسْمِيَةَ عَبَثاً ، وَلَمْ تَسُقْنِي الْمُصَادَفَةُ إِلَيْهَا ، وَإِنَّمَا عَمَدْتُ إِلَيْهَا عَمْدًا ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةَ عَرِيقَةٌ — بِتَفْكِيرِهَا وَخَيَالِهَا — فِي الْعُرُوبَةِ .

وَلِأَنَّ الْقِصَّةَ الْأُولَى مِنْهَا ، تَشْرَحُ لَوْناً مُشْرِقاً مِنْ أَلْوَانِ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ الْخَالِصِ ، وكذلك تَشْرَحُ الْقِصَصُ الْأُخْرَى كَثِيراً مِنْ مَزَايَا الْعَرَبِ ، وَتُشِيدُ بِفَضَائِلِهِمْ ، وَتُنَوِّهُ بِمَا وُهِبُوهُ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ وَالْبُطُولَةِ وَالْكَرَمِ ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ جَلَائِلِ الصِّفَاتِ .

(٣)

لَعَلَّكَ أَدْرَكْتَ الْآنَ حَقِيقَةَ مَا قَصَدْتُ إِلَيْهِ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ ، وَارْتَضَيْتَ هَذِهِ الْحُجَجَ ، وَاطْمَأَنَّتْ نَفْسُكَ إِلَى صِدْقِهَا وَصِحَّتِهَا .

أَمَّا أَنَا ، فَلَنْ أَكْتَفِيَ بِهَذَا الْقَدْرِ مِنَ الْحَدِيثِ ، لِأَنَّنِي لَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتُمَكَ شَيْئًا مِمَّا يَجُولُ بِخَاطِرِي ، بَلْ أَحْرِصُ عَلَى أَنْ تَكُونَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنَ الْأَمْرِ .

لَقَدْ أَقَرَّ رِجَالُ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ – عَلَى اخْتِلَافِ أَقْدَارِهِمْ ، وَتَبَايُنِ ثَقَافَاتِهِمْ – كُلَّ مَا قَدَّمْتُهُ لَكَ مِنْ أَلْوَانِ الْقِصَصِ ؛ وَلَكِنَّ طَائِفَةً قَلِيلِينَ مِنْهُمْ ، قَدِ اسْتَثْنَوْا هَذِهِ الْقِصَّةَ الَّتِي أَفْتَتِحُ بِهَا مَجْمُوعَتَكَ الْجَدِيدَةَ ، وَعَجِبُوا أَنْ رَأَوْنِي مُعْتَزِمًا تَقْدِيمَهَا إِلَيْكَ .

وَحُقَّ لَهُمْ أَنْ يَعْجَبُوا . فَإِنَّ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ عُمْقِ التَّفْكِيرِ ، مَا لَا يُلَائِمُ مَدَارِكَ الصَّبِيِّ الْعَادِيِّ ، وَرُبَّمَا عَجَزَ الشَّابُّ وَالْفَتَى عَنْ إِدْرَاكِ مَعَانِيهَا ، وَاسْتِيعَابِ مَرَامِيهَا الْبَعِيدَةِ أَيْضًا ؛ فَكَيْفَ أُقَدِّمُهَا إِلَيْكَ ، أَيُّهَا الْقَارِئُ الصَّغِيرُ ؟

الْجَوَابُ عَلَى ذَلِكَ سَهْلٌ مَيْسُورٌ ، وَإِنْ بَدَا – لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ – صَعْبًا مُعَقَّدًا ، لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ . –

(٤)

وَلَسْتُ أَكْتُمُكَ – أَيُّهَا الصَّبِيُّ الْعَزِيزُ – أَنَّنِي عَجِبْتُ مِمَّا أَقْدَمْتُ عَلَيْهِ ، كَمَا عَجِبَ بَعْضُ الْمُرَبِّينَ مِنْ كِرَامِ الْمُدَرِّسِينَ ، وَهَمَمْتُ – مَرَّاتٍ عِدَّةً – أَنْ أَعْدِلَ عَنْ هَذِهِ الْفِكْرَةِ ، وَكِدْتُ أَنْثَنِي عَنْ تَقْدِيمِ هَذِهِ الْقِصَّةِ إِلَيْكَ ؛ وَلَكِنَّ رَغْبَتِي الشَّدِيدَةَ فِي تَثْقِيفِكَ ،

وَحِرْصِي عَلَى تَزْوِيدِكَ بِكُلِّ طَرِيفٍ مِنَ الْمَعَارِفِ ، وَثِقَتِي فِي ذَكَائِكَ ، وَاعْتِدَادِي بِدِقَّةِ فَهْمِكَ : أَبَى عَلَيَّ إِلَّا أَنْ أُقَدِّمَ هَذِهِ الْقِصَّةَ إِلَيْكَ .

وَلَقَدْ حَفَزَنِي إِلَى الْإِقْدَامِ — بَعْدَ الْإِحْجَامِ — مَا رَأَيْتُهُ مِنْ إِقْبَالِكَ عَلَى هَذِهِ الْمَكْتَبَةِ — الَّتِي أَنْشَأْتُهَا لَكَ — إِقْبَالَ الظَّامِئِ عَلَى الْمَاءِ الْعَذْبِ ، وَمَا شَهِدْتُهُ مِنْ حُسْنِ فَهْمِكَ وَبَرَاعَةِ مُلَاحَظَاتِكَ ، الَّتِي أَدْلَيْتَ لِي بِهَا ، مِنْ قِرَاءَةِ « قِصَصِ شِكْسِبِيرَ » حِينَ لَخَّصْتُهَا لَكَ ، وَأُعْجِبْتَ بِخَيَالِهَا أَيَّمَا إِعْجَابٍ . وَلَقَدْ مَاشَيْتُكَ فِي قِصَّةِ « جَلِفَرْ » مِنْ بَعْدِهَا ، فَرَأَيْتُ مَا زَادَ إِعْجَابِي بِكَ . ثم أَقْبَلْتَ عَلَى قِرَاءَةِ « الْقِصَصِ الْجُغْرَافِيَّةِ » و « الْقِصَصِ الْعِلْمِيَّةِ » إِقْبَالًا مَلَأَ نَفْسِي زَهْوًا بِكَ ، وَثِقَةً فِيكَ ؛ وَأَغْرَانِي بِتَقْدِيمِ هَذِهِ الْقِصَّةِ إِلَيْكَ ، بَعْدَ أَنْ أَمِنْتُ عَلَيْكَ الزَّلَلَ ، وَأَمَّلْتُ فِيكَ أَصْدَقَ تَأْمِيلٍ . وَسَوْفَ تُحَقِّقُ ظَنِّي ، كَمَا حَقَّقْتَهُ مِنْ قَبْلُ ؛ وَتَسْتَوْعِبُ هَذِهِ الْقِصَّةَ — كَمَا عَوَّدْتَنِي — فِي شَوْقٍ نَادِرٍ ، وَإِقْبَالٍ عَجِيبٍ .

(٥)

وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تَعْتَرِضَ عَلَيَّ — بَعْدَ قِرَاءَةِ هَذِهِ الْقِصَّةِ — اعْتِرَاضًا مَا أَظُنُّهُ يَخْفَى عَلَيْكَ ؛ وقد وَجَّهْتُهُ إِلَى نَفْسِي ، قَبْلَ أَنْ تُوَجِّهَهُ إِلَيَّ .

أَجَلْ ، مَا أُرَاكَ — بَعْدَ قِرَاءَتِهَا — إِلَّا مُسَائِلاً إِيَّاىَ : « مَا بَالُكَ لَمْ تُلْحِقْ هَذِهِ ٱلْقِصَّةَ ٱلْجَمِيلَةَ بِقِصَصِكَ ٱلْعِلْمِيَّةِ ؟ »

وجَوَابِى إِلَيْكَ : أَنَّنِى هَمَمْتُ بِذَلِكَ أَيْضًا ، وَرَأَيْتُهَا أَقْرَبَ إِلَى مَجْمُوعَةِ القِصَصِ ٱلْعِلْمِيَّةِ مِنْهَا إِلَى هَذِهِ ٱلْمَجْمُوعَةِ ٱلْجَدِيدَةِ ؛ لِمَا حَوَتْهُ — فِى أَثْنَائِهَا — مِنْ ضُرُوبِ ٱلْمَعْرِفَةِ ، وَفُنُونِ ٱلْعِلْمِ . وَلَـكِنِّى آثَرْتُ — عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ — أَنْ أَسْلُكَهَا فِى عِدَادِ هَـذِهِ ٱلْمَجْمُوعَةِ ، لِتَكُونَ شَاهِداً عَدْلاً عَلَى بَرَاعَةِ ٱلْفِكْرِ ٱلْعَرَبِىِّ ، وَتَجْوِيدِ ٱلْخَيَالِ ٱلْعَرَبِىِّ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ ٱلْمَجْمُوعَةَ بِهَا أَجْدَرُ وَأَوْلَى .

عَلَى أَنَّنِى أَتْرُكُ لَكَ ٱلْخِيَارَ فِى أَنْ تَضُمَّهَا إِلَى هَذِهِ ٱلْمَجْمُوعَةِ ، أَوْ أَنْ تُلْحِقَهَا بِتِلْكَ ؛ فَلَيْسَ يَعْنِينِى مِنْ أَمْرِ ذَلِكَ شَىْءٌ ، مَا دُمْتَ قَدِ اسْتَوْعَبْتَ — فِى ذِهْنِكَ — كِلْتَا ٱلْمَجْمُوعَتَيْنِ ، وَٱنْتَفَعْتَ بِمَا تَحْوِيَانِهِ مِنْ مَعَارِفَ نَافِعَةٍ ، وَأَخْيِلَةٍ بَارِعَةٍ .

(٦)

بَقِىَ عَلَىَّ أَنْ أُجِيبَ عَلَى ٱعْتِرَاضِ بَعْضِ ٱلْمُرَبِّينَ عَلَى تَقْدِيمِى هَذِهِ ٱلْقِصَّةِ ٱلْبَدِيعَةِ إِلَيْكَ .

وَلَعَلِّى أَسْلَفْتُ ٱلْجَوَابَ عَلَى هَذَا الِاعْتِرَاضِ ٱلْوَجِيهِ ، فِيمَا قَدَّمْتُهُ مِنْ أَدِلَّةٍ وَبَرَاهِينَ عَلَى صَلَاحِيَتِكَ لِفَهْمِ هَذِهِ الدَّقَائِقِ ، بَعْدَ أَنْ أَثْبَتُّ

جَدَارَتَكَ وَكِفَايَتَكَ فِي اسْتِيعَابِ « قِصَصِ شِكْسِبِيرَ » و « الْقِصَصِ الْعِلْمِيَّةِ » وَ « القصص الْجُغْرَافِيَّةِ » ، وَمَا إِلَيْهَا .

وَلَـكِنَّنِي لَنْ أَجْتَزِئَ بِهذَا الْقَدْرِ مِنَ التَّدْلِيلِ ؛ وَلاَ بَأْسَ عَلَيَّ وَلاَ حَرَجَ ، إِذَا انْتَهَزْتُ هَذِهِ الفُرْصَةَ ، فَأَشَرْتُ إِلَى مَنْهَجِي فِي تَثْقِيفِكَ إِشَارَةً مُوجَزَةً :

لَقَدْ سَايَرْتُكَ فِي حِكَايَاتِ الأَطْفَالِ — مُنْذُ أَوَّلِ عَهْدِكَ بِالْقِرَاءَةِ — وَكَرَّرْتُ لَكَ الْعِبَارَاتِ ، لِأُيَسِّرَ عَلَيْكَ الْقِرَاءَةَ ، وَأُبَسِّطَهَا لَكَ تَبْسِيطاً ؛ وَمَا زِلْتُ بِكَ ، حَتَّى أَقْرَأْتُكَ أَجْزَاءَهَا كُلَّهَا ، فِي يُسْرٍ وَسُهُولَةٍ .

ثُمَّ تَدَرَّجْتُ بِكَ إِلَى : الْقِصَصِ الْفُكَاهِيَّةِ ، فَالْقِصَصِ الْجَدِيدَةِ ؛ ثُمَّ ارْتَقَيْتُ بِكَ إِلَى قِصَصِ الأَطْفَالِ ، فَقِصَصِ شِكْسِبِيرَ ، فَقِصَّةِ جَلِفَرَ بِأَجْزَائِهَا الأَرْبَعَةِ . ثُمَّ رَأَيْتُكَ تُقْبِلُ عَلَى الْقِصَصِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْجُغْرَافِيَّةِ ، وَتُنَاقِشُنِي فِيهَا مُنَاقَشَةً دَقِيقَةً ؛ دَلَّتْ عَلَى حُسْنِ فَهْمِكَ ، وَمَوْفُورِ ذَكَائِكَ ؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَى نَجَاحِ هَذِهِ الْخُطَّةِ الَّتِي انْتَهَجْتُهَا لَكَ نَجَاحًا تَجَاوَزَ أُمْنِيَّةَ النَّفْسِ !

(٧)

وَقَدْ عَجِبَ كُلُّ مَنْ رَآكَ ، وَدَهِشَ كُلُّ مَنْ حَاوَرَكَ ، فِي مُحْتَوَيَاتِ هَذِهِ الْقِصَصِ ، وَأَيْقَنُوا أَنَّكَ طِفْلٌ غَيْرُ عَادِيٍّ . وَلَوْ أَنْعَمُوا الْفِكْرَ ،

لَأدْرَكُوا سِرَّ تفوُّقِكَ، مِنْ غيْرِ أَنْ يَتَخَبَّطُوا فِي فَهْمِهِ، وَيَتَلَمَّسُوا لَهُ ٱلْأَسْبَابَ ٱلْبَعِيدَةَ، ٱلَّتِي لاَ تَمُتُّ إِلَيْهِ بِأَيَّةِ صِلَةٍ.

وَإِنِّي لقَاصٌّ — عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمْ — طُرْفَةً جَمِيلَةً، تُبَيِّنُ هَذَا السِّرَّ فِي تفوُّقِكَ عَلَى غيْرِكَ مِنَ ٱلْأَطْفَالِ ٱلَّذِينَ تَنَكَّبُوا طَرِيقَكَ، وَلَمْ يَنْهَجُوا نَهْجَكَ ٱلَّذِي رَسَمْتُهُ لَكَ، فَلَمْ تَحِدْ عَنْهُ قِيدَ أُنْمُلَةٍ:

حَدَّثَ الرُّوَاةُ الصَّادِقُونَ: أَنَّ رَجُلاً ذَاعَتْ شُهْرَتُهُ فِي الآفَاقِ، وَمَلأَ صِيتُهُ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهُ أَتَى عَجِيبَةً مِنَ ٱلْعَجَائِبِ حَيَّرَتْ أَلْبَابَ النَّاسِ، وَسَحَرَتْ عُقُولَهُمْ، حَتَّى عَدُّوهَا مُعْجِزَةً مِنَ ٱلْمُعْجِزَاتِ.

أَتَعْرِفُ: أَيُّ مُعْجِزَةٍ قَامَ بِهَا هَذَا الرَّجُلُ؟

لَقَدْ كَانَ يَرْفَعُ بِيَدَيْهِ ثَوْرًا، ضَخْمَ ٱلْجُثَّةِ، ثُمَّ يَحْمِلُهُ صَاعِداً بِهِ سُلَّماً عَالِياً، وَهَابِطًا مِنْ ذَلِكَ السُّلَّمِ؛ دُونَ أَنْ يَبْدُوَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ آثَارِ التَّعَبِ، أَوْ أَمَارَاتِ ٱلْجُهْدِ.

وَقَدْ حَارَ النَّاسُ فِي تَعْلِيلِ هَذِهِ الْقُدْرَةِ الْعَجِيبَةِ، وَذَهَبَتْ ظُنُونُهُمْ فِي تَأْوِيلِهَا كُلَّ مَذْهَبٍ.

فَلَمَّا سُئِلَ فِي ذَلِكَ، أَجَابَ سَائِلِيهِ — بَاسِمًا — :

« لَقَدْ تَعَوَّدْتُ حَمْلَ هَذَا الثَّوْرِ — مُنْذُ وِلاَدَتِهِ — وَأَخَذْتُ نَفْسِي بِهَذَا التَّمْرِينِ، دُونَ أَنْ أُقَصِّرَ فِي أَدَائِهِ يَوْماً وَاحِداً؛ وَظَلِلْتُ أَحْمِلُ هَذَا الثَّوْرَ فِي كُلِّ صَبَاحٍ، صَاعِداً بِهِ السُّلَّمَ الْعَالِيَ، وَهَابِطًا بِهِ أَدْرَاجَهُ.

وَمَا زِلْتُ أَكْبرُ — وَيَكْبرُ الثَّوْرُ مَعِى — وَكَانَ نُمُوُّنَا — فِى كُلِّ يَوْمٍ — يَزْدَادُ زِيَادَةً مُطَّرِدَةً بَطِيئَةً؛ حَتَّى اكْتَمَلَ نَمَاؤُنَا؛ وَلَمْ أَشْعُرْ أَنَّ وَزْنَ الثَّوْرِ قَدْ زَادَ يَوْماً عَمَّا كَانَ فِى سَابِقِهِ، وَلَمْ أُحِسَّ لَهُ ثِقْلاً إِلى الْيَوْمِ !

(٨)

وَلَعَلَّكَ — أَيُّهَا الصَّبِيُّ العَزِيزُ — وَاجِدٌ فِى هَذَا الْمَثَلِ الْبَارِعِ، سِرَّ تَفَوُّقِكَ فِى الْقِرَاءَةِ، وَمَصْدَرَ نَجَاحِكَ فِى هذَا الْمَيْدَانِ.

فَقَدْ كَانَ الْمَنْهَجُ الَّذِى أَخَذْتُ نَفْسِى بِتَقْدِيمِهِ إِلَيْكَ، سَائِراً عَلَى هَذِهِ الْخُطَّةِ، وَكَانَ الْأُسْلُوبُ يَتَدَرَّجُ بِكَ — يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ — مِنْ غَيْرِ أَنْ تَشْعُرَ بِانْتِقَالٍ فُجَائِىٍّ يَسُوءُ أَثَرُهُ فِى نَفْسِكَ.

وَمَا زِلْتُ بِكَ حَتَّى أَعْدَدْتُكَ لِفَهْمِ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَأَمْثَالِهَا؛ بِلاَ مَشَقَّةٍ، أَوْ إِعْنَاتٍ.

لَقَدْ بَدَأْتُ بَرْنَامَجِى بِتَسْلِيَتِكَ، ثُمَّ تَدَرَّجْتُ — بَعْدَ خُطُوَاتٍ — فَمَزَجْتُ لَكَ التَّسْلِيَةَ بِالْفَائِدَةِ؛ وَمَا زِلْتُ بِكَ، حَتَّى أَصْبَحْتَ تَرَى فى الْمَعَارِفِ وَحْدَهَا مُتْعَةً وَتَسْلِيَةً، لا يَعْدِلُهَا شَىْءٌ مِنْ ضُرُوبِ الْمُتَعِ؛ وَأَفَانِينِ التَّسْلِيَةِ.

وَلَقَدْ كُنْتَ — وَمَا زِلْتَ إِلى الآنَ — تَقْرَأُ فى هَذِهِ الْمَكْتَبَةِ: أُسْلُوبِى وَحْدَهُ؛ حَتَّى أَلِفْتَهُ، وَتَعَوَّدْتَ فَهْمَهُ بِأَيْسَرِ تَأَمُّلٍ، وَأَدْنَى مُلَاحَظَةٍ.

فَلا عَجَبَ إِذَا حفزَنى هَذَا النَّجَاحُ إلى السَّيْرِ بِك مَرْحَلَةً أُخْرَى ، فَإِنَّكَ وَاجِدٌ فى هَذِهِ الْقِصَّةِ — الَّتِي أَوْجَزْتُهَا لَكَ — مَزِيجاً مِنْ أُسْلُوبِى وَأُسْلوب مُؤَلِّفِهَا الْعَرَبِىِّ ، الَّذِى قَبَسْتُ لَك أكْثَرَ عِبَارَاتِهِ ؛ رَغْبَةً فى تَمْرِينِكَ عَلَى فَهْمِ الْأَسَالِيبِ الْمُخْتَلِفَةِ الأُخْرَى ، وسأَلْقَاكَ بهذِهِ القِصَّةِ كاملةً فى مكتبةِ الشَّبابِ .

(٩)

وَبَعْدُ ؛ فَقَدْ أَطَلْتُ حَدِيثِى — كَمَا وَعَدْتُكَ فى أَوَّلِ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ — وَسَأَلْقَاكَ فى مُقَدِّمَةِ القِصَّةِ التَّالِيَةِ ، بِحَدِيثٍ آخَرَ ، أَشْرَحُ لَكَ — فى أَثْنَائِهِ — فُنُوناً مِنَ الْقَوْلِ ؛ وَأَلْوَاناً مِنَ الْمَعَانِى ، الَّتِى يَسُرُّكَ أَنْ تَتَعَرَّفَهَا . فَإِنِّى لَا أَمَلُّ حَدِيثَكَ ، وَلَا أَضْجَرُ بِحِوَارِكَ وَمُنَاقَشَتِكَ ، وَمَا أَحْسَبُكَ إِلَّا كَذَلِكَ !

كامل كيلاني

*

تمهيد

١ — جوارِى « الْوَقْوَاقِ »

أَيُّها القارئُ الصَّغِيرُ :

هَلْ عرَفْتَ جزائرَ « الْوَقْوَاقِ » ؟ ما أظُنُّكَ رأيتَها ؛ ولكنِّى أحسَبُكَ قد سمِعتَ بها ، وقرأتَ عنها فى القِصصِ والأساطيرِ . ولقد حاولْتُ أن أتَعرَّفَ هذه الجزائرَ — كما حاولَ غيْرِى منَ الباحثينَ أن يَهتَدُوا إلى مكانِها — فلم أُوَفَّقْ ، ولم يُوَفَّقُوا إلى شىء من ذلكَ . ولا سبيلَ إلى رُؤْيَةِ هذه الجزائرِ ، لأنها — فِى الْحقِّ — جَزائرُ خياليَّةٌ ، لا وُجودَ لهَا فى عالَمِ الوُجُودِ ؛ وليسَ لها مكانٌ فى هذهِ الدُّنيَا التى نَعيشُ فيها ، وإنْ كانَ لها أرْحَبُ مكانٍ فى عالَمِ الأَساطيرِ ، ودُنْيَا الْخيَالِ !

ولقَدْ زعَمَ بعضُ أسلافِنا الأقدَمينَ : أنَّ جزائرَ « الوَقْوَاقِ » واقعةٌ تحتَ خَطِّ الِاستِواءِ ، وأنَّ فيها جَزيرَةً يُولَد بها الإنسان من غيرِ أُمٍّ ولا أبٍ !

وزَعَمَ بَعْضُهُمْ : أنَّ إحدى جزائرِ « الْوَقْوَاقِ » تُنْبِتُ شَجراً عجيباً ، لا يُثْمِرُ الفواكه وما إليها من ضُروبِ الثَّمَرِ ، كما تُثْمِرُ الأَشجارُ الأُخرى ؛ بَلْ يُثْمِرُ النساءَ . وقد أطلقوا عَلَى هؤلاءِ النِّسوَةِ — اللَّائى يُولَدْنَ من تلك الأشجارِ — اسْمَ جَوارِى : « الْوَقْوَاقِ » .

وقد زَعَمُوا : أَنَّ جَزيرَةً أُخْرَى — مِنْ هَذِهِ الجَزائِرِ — تُنْبِتُ أَشْجَارُها الرِّجَالَ دُونَ النِّسَاءِ !

٢ - رأى الباحثين

وكذلكَ زَعَمُوا أن فى إحْدى هذهِ الجزائرِ العَجيبةِ ، وُلِدَ بَطلُ هذهِ القِصَّةِ ، من غيرِ أبٍ ولا أمٍّ .

هكَذا يقولُ بعضُ القَصَّاصينَ، ولكنَّ جَمْهَرةً من العُلماءِ والباحِثينَ لم يَأخُذوا بهذهِ المَزاعِم ، وبَحثوا - جاهدينَ - حتى عرَفوا حقيقةَ هذهِ القِصَّةِ ، وأصلَ بَطلِها ومَنْشَأَهُ ؛ واهتَدَوْا إلى كثيرٍ من التفاصيلِ المُعجبَةِ ، التى أنارَتِ السبيلَ إلى فَهْمِ دقائِقِها وأسرارِها . وإنِّى لَقاصُّها عليكَ فى الفُصولِ التاليةِ :

الفصل الأول

١ – مَوْلِدُ ابْنِ يَقْظَانَ

كَانَ فى إِحْدَى جَزَائِرِ الْهِنْدِ، جَزِيرَةٌ عَظِيمَةٌ، مُتَّسِعَةُ الأَكْنَافِ، بَعِيدَةُ الأَرْجَاءِ، كَثِيرَةُ الْفَوَائِدِ، عَامِرَةٌ بِالنَّاسِ؛ يَمْلِكُهَا رَجُلٌ مِنْهُمْ، شَدِيدُ الأَنَفَةِ وَالْغَيْرَةِ؛ وكَانَتْ لَهُ أُخْتٌ، ذَاتُ جَمَالٍ وَحُسْنٍ بَاهِرٍ؛ وَكَانَ أَخُوهَا مُتَكَبِّرًا مَزْهُوًّا، فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُزَوِّجَها مِنْ احَدٍ مِنَ الرِّجَالِ، لِأَنَّهُ – فِيما يَرَى – لا يَجِدُ لِمُصَاهَرَتِهِ كُفْئًا.

وَكَانَ لِهَـذِهِ الْفَتَاةِ قَرِيبٌ، اسْمُهُ: «يَقْظَانُ»؛ وَهُوَ كَرِيمُ النَّفْسِ، طَيِّبُ الْخِلَالِ؛ فَلَمَّا غابَ الْمَلِكُ فى بَعْضِ حُرُوبِهِ، وَطَالَتْ غَيْبَتُهُ، حَسِبَهُ أَهْلُهُ قَدْ ماتَ، أَوْ قُتِلَ فى تِلْكَ الْحُرُوبِ؛ فَزَوَّجُوا «يَقْظَانَ» مِن تِلْكَ الْفَتاةِ سِرًّا، وَبَعْدَ أَشْهُرٍ قَلِيلَةٍ، حَمَلَتْ مِنْهُ، ثُمَّ وَضَعَتْ طِفْلًا تَلوحُ عَلَيْهِ مَخَايِلُ الذَّكاءِ وَالنبْلِ.

وَلَمْ تَكَدْ تِلْكَ الْفَتاةُ تَضَعُ طِفْلَها، حتَّى عادَ أَخوها مِن حُرُوبِهِ مُنْتَصِرًا؛ ولَمْ يَجْرُؤْ أحدٌ مِن أَقَارِبِ هذا الملكِ عَلَى الإِفْضَاءِ إِلَيْهِ بِسِرِّ هذا الزَّواجِ الذى تَمَّ فى غَيْبَتِهِ، خوْفًا مِن غَضَبِه عَلَيْهِمْ، وانْتِقَامِهِ مِنْهُمْ.

وَخَشِيَتِ الفَتاةُ أن يَذِيعَ سِرُّها، فَيَقْتُلَها أَخُوها. ولَمْ تَرَ بُدًّا مِن كِتْمانِ أَمْرِها عَنْهُ. وَبَعْدَ افْتِكارٍ طَوِيلٍ، قَرَّ قرارُها عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ هذهِ الوَرْطَةِ: بِإِقْصَاءِ هذا الطِّفْلِ التَّاعِسِ المِسْكِينِ عَنْ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ، حتَّى لا تَسُوءَ الْعُقْبَى.

٢ – فِى التَّابُوتِ



ثُمَّ وَضَعَتِ الأُمُّ طِفْلَهَا – بَعْدَ أَنْ أَرْوَتْهُ مِنَ الرَّضَاعِ – فى تَابُوتٍ

أَحْكَمَتْ إِغْلَاقَهُ، وخَرَجَتْ بِهِ سِرًّا إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، وَقَلْبُهَا يكادُ يَحْتَرِقُ صَبَابَةً إليه، وحُزْنًا عَلَيْهِ، ثُمَّ وَدَّعَتْهُ قَائِلَةً:

« اللَّهُمَّ إِنَّكَ قَدْ خَلَقْتَ هَذَا الطِّفْلَ، وَلَمْ يَكُنْ شيئًا مذكُوراً، وَرَزَقْتَهُ فِي ظُلُمَاتِ أَحْشَائِي، وحَفِظْتَهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، وتَكَفَّلْتَ بِهِ حَتَّى تَمَّ واسْتَوَى. وَأَنَا قَدْ أَسْلَمْتُهُ إِلَى لُطْفِكَ، وَرَجَوْتُ لَهُ فَضْلَكَ، وَسَأُلْقِيهِ فِي الْيَمِّ خَوْفًا مِنْ هَذَا الْمَلِكِ الغَشُومِ الْجَبَّارِ العَنِيدِ. فكُنْ لَهُ، وَلَا تُسْلِمْهُ إلى مَنْ لا يَرْحَمُهُ، يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ! »

ثُمَّ قَذَفَتْ بِهِ فِي الْيَمِّ، فَصَادَفَ ذَلِكَ جَرْيَ الْمَاءِ بِقُوَّةِ الْمَدِّ، فَاحْتَمَلَهُ — مِنْ لَيْلَتِهِ — إِلَى سَاحِلِ جزيرَةِ الْوَقْوَاقِ — التي تُحَدِّثُنَا بها الْأَسَاطِيرُ — وكَانَ الْمَدُّ يَنْتَهِي — عادةً — إِلَى أَقْصَاهُ فِي بَرِّ هذه الجزيرة، وَلَا يَصِلُ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ إِلَّا مَرَّةً فِي كُلِّ عَامٍ.

فأَدْخَلَهُ الْمَاءُ — بِقُوَّتِهِ — إِلَى أَجَمَةٍ مُلْتَفَّةِ الشَّجَرِ، طَيِّبَةِ التُّرْبَةِ، مَسْتُورَةٍ عَنِ الرِّيَاحِ والْمَطَرِ، مَحْجُوبَةٍ عَنِ الشَّمْسِ، تَنْحَرِفُ عنها إِذَا طَلَعَتْ، وَتَمِيلُ إِذَا غَرَبَتْ.

ثُمَّ أَخَذَ الْمَاءُ فِي النَّقْصِ والْجَزْرِ عَنِ التَّابُوتِ — الَّذِي فِيهِ الطِّفْلُ — وَبَقِيَ التَّابُوتُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ.

وتَوَالَى هُبُوبُ الرِّيَاحِ، فتجمَّعَتِ الرِّمَالُ، وعَلَتْ وتَرَاكَمَتْ، حَتَّى سَدَّتْ بَابَ الأَجَمَةِ عَلَى التَّابُوتِ، وَرَدَمَتْ مَدْخَلَ الْمَاءِ إِلَى تِلْكَ الأَجَمَةِ؛ فكَانَ الْمَدُّ لَا يَنْتَهِي إِلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ.

٣ – مُرْضِعَةُ الطِّفْلِ

وكَانَتْ مَسَامِيرُ التَّابُوتِ قَدْ قُلِعَتْ ، وأَلْوَاحُهُ قَدِ اضْطَرَبَتْ ، حِين قَذَفَهُ المَوْجُ ، وَرَمَاهُ فِى تِلْكَ الأَجَمَةِ .



فَلَمَّا اشْتَدَّ الْجُوعُ بذلكَ الطِّفْلِ ، بَكَى واسْتَغَاثَ ، وعَالَجَ الْحَرَكَةَ ، فَوَقَعَ صَوْتُهُ فِى أُذُنِ ظَبْيَةٍ فَقَدَتْ ولَداً لَهَا ، وكان قد خَرَجَ مِنْ كِنَاسِهِ ، فرآهُ عُقابٌ قَوِىٌّ ، فَحَمَلَهُ وطَارَ بِهِ — من فوره — فخَرَجَتِ

الظَّبْيَةُ تبحثُ عن ولدِهَا ، فلمَّا سمِعتْ صُرَاخَ الطِّفلِ ظَنَّتْهُ ولدَهَا المفقودَ ، فَتَتَبَّعَتِ الصَّوْتَ ، حَتَّى وصلَتْ إِلَى التَّابُوتِ ، ففَحَصَتْ عَنْهُ بأظْلاَفِها — والطفلُ يَئِنُّ من دَاخِلِهِ — حَتَّى طَارَ عَنِ التَّابُوتِ لَوْحُهُ الأعلى .

فرَقَّتْ « أُمُّ عَزَّةَ » له ، وعَطفَتْ عَلَيْهِ ، وأَلْقَمَتْهُ حَلَمَتَهَا ، وأَرْوَتْهُ لبَنًا سائِغًا ؛ ومَا زَالَتْ بِهِ تتعهَّدُهُ ، وتُرَبِّيهِ ، وَتَدْفَعُ عَنْهُ الأذَى ، مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

وَكَانَتْ هذِهِ الظَّبْيَةُ — الَّتِي تَكَفَّلَتْ بِهِ — قد وافقَتْ مَكانًا خِصْبًا ، ومَرْعًى أَثِيثًا ؛ فَكَثُرَ لَحْمُها ، وَدَرَّ لَبَنُها ، حتَّى قَامَ بِغذاءِ ذَلِكَ الطِّفْلِ أَحْسَنَ قِيَامٍ .

وكانَتْ « أُمُّ عَزَّةَ » تَظَلُّ بجواره ، لَا تَبعُدُ عَنْهُ إلا لِضَرُورَةِ الرَّعْيِ .

٤ — بَعْــدَ حَوْلَيْنِ

وَأَلِفَ الطِّفْلُ « أُمَّ عَزَّةَ » ، حَتَّى أَصْبَحَ لا يستطيعُ فراقَها ، فَكُلَّمَا أَبْطَأَتْ عَنْهُ : يَشْتَدُّ بُكاؤُه ، فَتَطِيرُ إِليْهِ تلك الظبيةُ الحنونُ .

وَلَمْ يَكُنْ — بِتِلْكَ الْجَزِيرَةِ — أحدٌ منَ السِّبَاعِ العَادِيَةِ ، فَتَرَبَّى الطِّفْلُ وَنَمَا ، واغْتَذَى بِلَبَنِ تِلْكَ الظَّبْيَةِ ، إلى أَنْ تَمَّ لَهُ حَوْلَانِ .

وَتَدَرَّجَ الطِّفلُ فى المَشْىِ ، وَأَثْغَرَ — أَعْنِى : نبتَتْ أَسْنَانُهُ — فَكانَ يَتْبَعُ تِلْكَ الظَّبْيَةَ ، وكانَتْ هِىَ تَرْفُقُ بِهِ وَتَرْحَمُهُ ، وَتَحْمِلُهُ إِلَى مَوَاضِعَ فِيهَا شَجَرٌ مُثْمِرٌ ، فَكانَتْ تُطْعِمُهُ ما تَسَاقَطَ مِنْ ثَمَرَاتِهَا الْحُلْوَةِ النَّضِيجَةِ ، وما كَانَ مِنْها صُلْبَ الْقِشْرِ : كَسَرَتْهُ لَهُ بِطَواحِنِها .

وَمَتَى عادَ الطِّفْلُ إِلى اللَّبَنِ أَرْوَتْهُ ، وَمَتَى ظَمِئَ إِلى الْماءِ أَوْرَدَتْهُ وَسَقَتْه ، وَمَتَى ضَحِىَ ظَلَّلَتْهُ ، وَمَتَى بَرَدَ أَدْفَأَتْهُ . فَإِذَا جَنَّ اللَّيْلُ ، صَرَفَتْهُ إِلى مَكانِهِ الْأَوَّلِ ، وَجَلَّلَتْهُ بِنَفْسِها ، وغَطَّتْهُ بِرِيشٍ كان مَمْلُوءاً بِهِ التَّابوتُ الذى وَضَعَتْهُ فِيهِ أُمُّهُ .

* * *

وكانَا — فى غُدُوِّهِما ورَوَاحِهِما — قَدْ أَلِفَهُما رَبْرَبٌ .

أَتَعْرِفُ الرَّبْرَبَ أَيُّها القَارِئُ الصَّغِيرُ ؟ مَا أَظُنُّكَ تَعْرِفُهُ ، لِأَنَّ هَذِهِ الكَلِمَةَ — فِيما أَعْلَمُ — جَدِيدَةٌ ، لَمْ يَأْلَفْهَا سَمْعُكَ . فَلْتَعْلَمْ أَنَّ الرَّبْرَبَ هُوَ جَمَاعَةٌ مِنْ بَقَرِ الوَحْشِ ، وقَدْ أَلِفَتْ هَذِهِ الْجَماعَةُ : الظَّبْيَةَ والطفلَ ، فكانَتْ تَسْرَحُ مَعَهُما ، وتَبِيتُ حَيْثُ مَبِيتُهُما .

* * *

فما زَالَ الطِّفْلُ مَعَ الظَّبْيَةِ عَلَى تِلْكَ الْحالِ ، يَحْكِى نَغَمَتَها بِصَوْتِهِ — حتَّى لَا يُوجَدَ بَيْنَهُما فرقٌ — وَيُقَلِّدُ نَغَماتِ ذلِك الرَّبْرَبِ الذى أَلِفَهُ ، وَحَنَا عَلَيْهِ بِطَبْعِهِ .

وكانَ — كذَلِكَ — يَحْكِى جَمِيعَ ما يَسْمَعُهُ مِنْ أَصْواتِ الطَّيْرِ

وأنْوَاعِ سائِرِ الْحَيَوانِ : مُحَاكاتِه لِصَوْتِ الظبية ، فى الِاسْتِصْرَاخِ ، والِاسْتِئْلَافِ ، والِاسْتِدْعاء ، والاسْتِدْفاعِ . إِذْ لِلْحَيَوَاناتِ — فى هذه الأحْوالِ الْمُخْتَلِفَةِ — أَصْواتٌ مُخْتَلِفَةٌ .

فَأَلِفَتْهُ الْوُحُوشُ وَأَلِفَها ، وَلَمْ تُنْكِرْهُ ، وَلَا أَنْكَرَهَا !

*
* *

وَقَدْ مُثِّلَتْ — فى خَلَدِهِ — صُوَرُ هذهِ الحيوَاناتِ ، وَثَبَتَتْ فى نَفْسِهِ أَمْثِلَةُ ما يراه من الأشْياء ؛ فكان يَتَخَيَّلُها بَعْدَ مَغِيبها عَنْ مُشاهَدَتِه ، وكان يَحْدُثُ لَهُ شَوْقٌ إلى رُؤْيَةِ بَعْضِها ، وكَرَاهِيَةٌ لِبَعْضِها .

٥ — قُوَّةُ الحيوانِ وضَعْفُ الإنسانِ

وكانَ — فى ذلك كُلِّهِ — يَنظُرُ إلى جميع الحيواناتِ ، فيَراها كاسِيَةً بالأوْبارِ ، والأشعارِ ، وأنواعِ الرِّيشِ — عَلى اختلافِ ألوانِها ، وتبايُنِ أجناسِهَا ، وتَنَوُّعِ أشكالِهَا — وكانَ يَرَى ما لَها من سُرْعَةِ العَدْوِ ، وقوةِ البَطْشِ ، وما لَها من الأسْلِحَةِ المُعَدَّةِ لمُدَافعَةِ من يُنازِعُها : مِثلِ القُرونِ ، والأنيابِ ، والحَوافِرِ ، والصَّيَاصِى ، والمَخَالِبِ .

ثم يرجعُ إلى نفسهِ ، فيَرَى ما بِهِ من العُرْىِ ، وعدمِ السِّلاحِ ، وضَعْفِ العَدْوِ ، وقلَّةِ البَطْشِ ، عندَ ما كانت تُنازِعُهُ الوُحوشُ أكْلَ الثمَراتِ ، وتَسْتَبِدُّ بها دونَه ، وتَتَغلَّبُ عليه ، فلا يستطيعُ المُدَافعةَ عنْ نفسهِ ، ولا الفِرارَ بشىءٍ من الثمار !

وكان يَرَى أَتْرَابَهُ — من أولادِ الظِّباء — قد نَبتَتْ لها قرونٌ بعدَ أنْ لمَ تكن، وصارَتْ قوِيّةً بعدَ ضَعفها — فى العَدْوِ — ولا يرى لنفسِهِ شيئاً من هذا كُلِّهِ، فكانَ يُفكرُ فى ذلك، ولا يَدْرى ما سَبَبُهُ؟

وكان أيضاً ينظرُ إلى سائرِ الحيوانِ، فيَراها مَستورةً بالأذْنابِ، مكسُوّةً بالأوْبارِ — أو ما شابهَها — فكان ذلك كُلُّهُ يَكْرُبُهُ ويَسوءِهُ.

٦ — فى العـامِ السابعِ

فلمَّا طالَ همُّهُ فى ذَلِكَ كُلِّهِ — وَقَدْ قَارَبَ سَبْعَةَ أعْوَامٍ — وَيَئِسَ مِنْ أنْ يَكمُلَ لَهُ مَا قَدْ أضَرَّ بِهِ مِنَ النَّقْصِ: اتَّخَذَ مِنْ أوْرَاقِ الشَّجَرِ العَرِيضَةِ شَيْئاً جَعَلَ بَعْضَهُ خَلْفَهُ، وَبَعْضَهُ قُدَّامَهُ، وَعَمِلَ — مِنَ الْخُوصِ والْحَلْفَاءِ — شِبْهَ حِزَامٍ عَلَى وَسَطِهِ، فتعلقت بِهِ تِلْكَ الأوْرَاقُ.

فَلَمْ يَلْبَثْ إلا يَسيراً، حَتَّى ذَوَى ذَلِكَ الوَرَقُ، وجَفَّ وتَسَاقَطَ عَنْهُ، فَمَا زَالَ يتَّخِذُ غَيْرَهُ، ويَخْصِفُ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ طاقاتٍ مضاعفةً، ويَخْرُزُ الوَاحِدَةَ فى الأخْرَى، ويُلْزِقُ الأُولَى بالثانية؛ ليستُرَ بِهَا بَعْضَ جِسْمِهِ، ورُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ أطْوَلَ لبقَاءِ ذَلِكَ السِّتْرِ. إلاَّ أنَّهُ — عَلَى كلِّ حالٍ — قَصيرُ الْمُدَّةِ.

واتَّخَذَ مِنْ أغْصَانِ الشَّجَرِ عِصِيًّا سوَّى أطرَافَهَا، وعَدَّلَ مُتُونَهَا، وقَوَّمَ مِنَ اعْوِجَاجِها وتَثَنِّيها، وكَانَ يَهُشُ بِهَا عَلَى الوُحُوشِ المُنَازِعَةِ لَهُ،

فَيَحْمِلُ عَلَى الضَّعِيفِ فيها ، وَيُقَاوِمُ القويَّ منها ، فأكْسَبَهُ ذلك النجاحُ ثِقَةً وتأميلاً ، ونَبُلَ بِذَلِكَ قَدْرُهُ عِنْدَ نَفْسِهِ بَعْضَ نَبَالَةٍ ، وعَلِمَ أَنَّ لِيَدِهِ فَضْلاً كثيراً عَلَى أَيْدى الْحَيَوَانِ ، إِذْ أَمْكَنَ لَهُ بِهَا سَتْرُ جِسْمِهِ ، واتخاذُ العِصِيِّ الَّتِي يُدَافِعُ بِهَا عَنْ حَوْزَتِهِ ، فَاسْتَغْنَى بِهَا عَمَّا أَرَادَهُ مِنَ الذَّنَبِ ، والسِّلاَحِ الطَّبِيعِيِّ .

٧ — الثَّوْبُ الأَوَّلُ

وَفِى خِلاَلِ ذَلِكَ تَرَعْرَعَ ، وَأَرْبَى عَلَى السَّبْعِ سِنِينَ ، وَطَالَ بِهِ العَنَاءُ فِى تَجْدِيدِ الأَوْرَاقِ — الَّتِى كَانَ يَسْتَتِرُ بِهَا — فَكَانَتْ نَفْسُهُ تُنَازِعُهُ إِلَى اتِّخَاذِ ذَنَبٍ مِنْ أَذْنَابِ الوُحُوشِ المَيِّتَةِ ، لِيُعَلِّقَهُ عَلَى نَفْسِهِ .



ولكنَّ « ابنَ يقظانَ » رَأَى أَنَّ أَحْيَاءَ الوُحُوشِ تَتَحَامَى مَيِّتَهَا ، وتَنْفِرُ عَنْهُ ، فَلَمْ يتأتَّ لهُ الإِقْدَامُ عَلَى تَنْفِيذِ رَغْبَتِهِ .

ثُمَّ صَادَفَ — فى بَعْضِ الأيَّامِ — نَسْراً مَيِّتاً ، فرَأَى الفُرْصَةَ سَانِحَةً لتَحْقِيقِ إرْبَتِهِ ، إذْ لَمْ يَرَ لِلْوُحُوشِ عَنْهُ نُفُوراً ، فَأَقْدَمَ عَلَيْهِ ، وقَطَّعَ جَنَاحَيْهِ وذنبَهُ صِحَاحًا — كَمَا هِيَ — وَفتَحَ رِيشَهَا وسَوَّاهَا، وسَلَخَ — عَنْ ذَلِكَ النَّسْرِ — سَائِرَ جِلْدِهِ ، وفَصَّلَهُ عَلَى قِطْعَتَيْنِ ، رَبَطَ إحْدَاهُمَا عَلَى ظَهْرِهِ ، والأُخْرَى عَلَى سُرَّتِهِ ومَا تَحْتَهَا ، وعَلَّقَ الذَّنَبَ مِنْ خَلْفِهِ ، وَعَلَّقَ الْجَنَاحَيْنِ عَلَى عَضُدِهِ .

فَأَكْسَبَهُ ذَلِكَ سِتْراً ، ودِفْئًا، وَمَهَابَةً — فِى نُفُوسِ جَمِيعِ الوُحُوشِ — حَتَّى كَانَتْ لاَ تُنَازِعُهُ ولاَ تُعَارِضُهُ . فَصَارَ لا يَدْنُو إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا سِوَى « أُمِّ عَزَّةَ » : تلكَ الظَّبْيَةِ الَّتِى كَانَتْ أرضَعَتْهُ ورَبَّتْهُ ؛ فَإِنَّهَا لَمْ تُفَارِقْهُ وَلاَ فَارَقَهَا ، إِلَى أَنْ أَسَنَّتْ وضَعُفَتْ ؛ فَكَانَ يَرْتَادُ بِهَا المَرَاعِيَ الْخِصْبَةَ ، ويَجْتَنِى لهَا الثَّمَرَاتِ الْحُلْوَةَ ؛ ويُطْعِمُهَا ، ولا يَأْلُو جُهْداً فِى بِرِّها ، والعِنَايَةِ بِأَمْرِهَا ، جَزَاءً لَهَا عَلَى مَا أَسْلَفَتْهُ إلَيْهِ مِنْ صَنِيعٍ وَإِحْسَانٍ !

*

الفصل الثانى

١ — مَوْتُ الظبيَـــةِ

وما زالَ الضَّعْفُ والهُزَالُ يَستوليانِ على « أُمِّ عَزَّةَ » حتى حانَ حَيْنُها ، وانتَهَتْ أيامُها مِنَ الدنيا ، وأدْرَكَها المَوْتُ الذى لا يُفْلِتُ منه كائنٌ كانَ . فَسكنَتْ حرَكاتُها بالْجملةِ ، وتَعَطَّلَتْ جميعُ أفعالِها .

فلما رآها الصَّبِيُّ على تلك الحالِ ، جَزِعَ جَزَعاً شديداً ، وكادَتْ نفسُهُ تَفيضُ أَسَفاً عليها .

فكانَ يُنادى « أُمَّ عَزَّةَ » بالصوتِ الذى كانت عادَتُها أن تُجيبَه عندَ سماعه ، وَيصيحُ بأَشدِّ ما يَقدِرُ عليه ، فلا يَرَى لَهَا — عندَ ذلك — حركةً ولا تغيُّراً !

فكانَ يَنظرُ — إلى ذنَبِها ، وإلى عَيْنَيْها — فلا يَرَى بها آفةً ظاهرةً . وكذلك كانَ يَنظرُ إلى جميعِ أعضائِها ، فلا يَرى — بشيءٍ منها — آفةً من الآفاتِ ، أوْ عِلّةً من العِلَلِ .

فكان يَطمعُ أن يَعثُرَ على موضعِ الآفةِ ؛ وظلَّ يَبحثُ جاهداً لِيُزِيلَها عنها ، ويُعيدَ إليها الحياةَ ، فترْجعَ إلى ما كانتْ عليهِ من الحركةِ والسَّعيِ والنَّشاطِ . فلم يَتأتَّ له شيءٌ من ذلك ، ولا استطاعَهُ .

٢ – تأَمُّلَاتُ ابْنِ يَقْظَانَ

وكانَ الذى أرْشَدَهُ – إلى البَحْثِ عَنْ هذهِ الآفةِ – ما كان قَدِ اعْتَبَرَهُ فى نفسه ، ولاَحَظَهُ مِنْ أمْرِهِ ، قبلَ ذلك .

لِأنَّهُ كانَ يَرَى أنَّهُ إذا أغمَضَ عَينيْه ، أو حَجبَهُما بشىء ، فإنه يَعجِزُ – حينئذٍ – عن رُؤْيةِ ما يُحيطُ به ، فلا يُبصِرُ شيئاً حتى يَزُولَ ذلك العائقُ .

وَكذلك كان يَرَى أنه إذا أدْخلَ إصْبَعيْهِ فى أُذُنَيهِ ، وسَدَّهما ؛ لا يَسمعُ شيئاً ، حتى يُزيلَ إصْبَعَيْهِ عنهما .

وَإذا أمسكَ أنفَهُ بِيدِهِ ، لا يَشَمُّ شيئاً من الرَّوائح حتى يَفتَحَ أنفهُ ، فيَزُولَ ذلِكَ العَائِقُ .

فاعْتَقَدَ – من أجْلِ ذلك – أنَّ جميعَ ما لِهذهِ الظَّبْيَةِ الهامِدةِ من الإدْراكاتِ والأفعالِ قد تكونُ لها عوائِقُ تَعوقُها ، ولا تُمكِّنُها مِنْ مُواصَلةِ أعمالِها ، فإذا اهتَدَى إلى مَصدرِ هذهِ العوائِقِ ، وَوُفِّقَ إلى إزالَتِها عنها : عادَتِ الظَّبْيةُ – كما كانت – قادِرةً على السَّعيِ والحركةِ ، وما إلى ذلكَ مِنْ ضروبِ الأفعالِ .

٣ – غَايَةُ الْبَحْثِ

فَلمَّا نَظَرَ إلى جَميع أعْضائِها الظَّاهِرَةِ ، وَأطالَ التأَمُّلَ فيها ، والفَحْصَ عَنْها : لَمْ يَرَ فِيهَا آفةً ظاهِرَةً . وكان يَرَى – مَعَ ذَلِك – أنَّ المُطْلَة

قَدْ شَمِلَتْها ، ولَمْ يَخْتَصَّ بِهـــا عُضْوٌ دُونَ عُضْوٍ .

وَثَمَّةَ وَقَعَ فى خاطِرِهِ أَنَّ الآفَةَ التى نَزَلَتْ — بِهَذِهِ الظَّبْيَةِ البارَّةِ الحَنون — إِنَّما هِىَ فى عُضْوٍ مَسْتورٍ غائِبٍ عَنِ العِيان ، مُسْتَكِنٍّ فى بَاطِنِ الْجَسَدِ .

وقال « ابْنُ يقظانَ » — فى نَفْسِهِ — :

« لعَلَّ تَعْطِيلَ ذَلك العُضْوِ — المَسْتُورِ عَنِ العِيَانِ — هُو مَصْدَرُ هَذه الآفاتِ ، ومَبْعَثُ هَذه العِلَلِ ؛ ولَعَلَّ ذَلك العُضْوَ — الذى خَفِىَ عَنْ عَيْنى ، فَلَمْ أَرَهُ — هُو أَهَمُّ عُضْوٍ فى جِسْمِ هذه الظَّبْيَةِ ، وَمَنْ يُدْرِينى ؟ فَلَعَلَّهُ باعِثُ الحياةِ فى جِسْمِها ، ولَعَلَّهُ — وَحْدَهُ — هُو الذى يُحَرِّكُ هـذه الأَعْضاءَ الظَّاهِرَةَ كلَّها . فلمَّا نَزَلَتْ بِهِ الآفةُ عَمَّتْ المَضَرَّةُ ، وشَمِلَتِ العُطْلَةُ ! » .

وَطَمِعَ بأَنَّهُ لَوْ عَثَرَ بذلِك العُضْو ، وأَزالَ عَنْه ما نزَلَ به : لاسْتقامَتْ أَحْوالُهُ ، وفاضَ عَلَى سائِرِ البدَنِ نَفْعُـه ، وعَادَتِ الأَفْعـالُ إلى ما كانَتْ عَلَيهِ .

٤ — أَعْضَـاءُ الحيوَانِ

وكانَ قَدْ شاهَدَ قَبْل ذَلك فى الأَشْباحِ المَيِّتَةِ — مِنَ الوُحُوش وَسِواها — أَنَّ جَميعَ أَعْضائِها لا تَجْويفَ فيها ، فَهِىَ — فِيما يَرَاها — مُصْمَتَةٌ لا جَوْفَ لها ، إِلَّا الفخِذَ ، والصَّدْرَ ، والبَطْنَ .

فَوَقَعَ – فى نَفْسِه – أَنَّ العُضْوَ الخَطِيرَ الشَّأْنِ، الذى يَبْحَثُ عَنْهُ جَاهِداً، وَيَتَلَمَّسُ العُثُورَ عَليهِ، والذى له تِلكَ الصِّفَةُ وذَلكَ الخَطرُ العظِيمُ؛ لَنْ يَعْدُوَ أَحَدَ هذه المَواضِعِ الثَّلاثَةِ، وَهِيَ: الفَخِذُ، والصَّدْرُ، والبَطْنُ.

وكانَ يَغْلِبُ عَلى ظَنِّهِ – غَلَبَةً قَوِيَّةً – أَنَّ ذَلكَ العُضْوَ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فى المَوْضِعِ المُتَوَسِّطِ مِن هذه المَواضِعِ الثلاثَةِ.

وَقَدْ دَفَعَتْهُ غَرِيزَتُه إلى ذلك، لأَنَّهُ كانَ قَدِ اسْتَقَرَّ فى نَفْسِه أنَّ جَمِيعَ أَعْضاءِ الجِسْمِ لا تَسْتَغْنى عَنْهُ، وَأَنَّها مُحْتاجَةٌ إِلَيهِ دَائمًا، لِأَنَّهُ يُمِدُّ الجِسْمَ كُلَّهُ بالقُوَّةِ والنَّشَاطِ، ويُوَزِّعُ الحَياةَ عَلَى جَمِيعِ الأعضاءِ. ومِنَ الطَّبِيعِىِّ أَنْ يَكونَ مَسْكَنُهُ فى الوَسَطِ، لِيَمُدَّ كلَّ ما يَتفَرَّعُ مِنْهُ بالحَياةِ والقُوَّةِ.

وكانَ – إذا رَجَعَ إلى ذاتِهِ – شَعُرَ بدَقَّاتِ هذا العُضْوِ فى صَدْرِهِ، وَأَحَسَّ أنَّ لهُ خَطَرًا أَىَّ خَطَرٍ.

وقد كانَ ينظر إلى سائرِ أعضائهِ: كاليَدِ، والرِّجْلِ، والأُذُنِ، والأَنْفِ، والعَيْنِ، والرَّاسِ؛ فيجد أنه يَقْدِرُ عَلَى مُفارَقتِها فى أىِّ وقْتٍ مِنَ الأوْقاتِ، ويُخَيَّلُ إليهِ أنَّ فى استِطاعَتِه أنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْها إذا سُلِبَها، ويَظُنُّ أنَّهُ لا يَفْقِدُ شيئًا بِفِقْدانِها. فإذا فكَّرَ فى ذلك الشَّىْءِ الذى يَدُقُّ فى صَدْرِهِ تلكَ الدَّقاتِ المُنْتَظِمَةِ الدَّائمَةِ: أيْقَنَ أنهُ لا يتأتَّى لهُ الاستغناءُ عَنهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ.

وكذلك كانَ يَرَى — عِند مُحارَبَتِه الوُحُوشَ — أنَّ أكْثَرَ ما يَتّقيه، وأخوَفَ ما يَخافُه مِنْهُمْ، هُوَ أنْ يُصِيبُوا صَدْرَهُ بأيِّ أذًى، لِشُعُورِهِ بذلك الشئْ الذى فيه، وَثِقَتُهُ بأنَّهُ باعَثُ الحَياةِ، وَمَصْدَرُ القُوَّةِ .

فلمَّا جَزَمَ الحُكْمَ بِأنَّ العُضْوَ الذى نَزَلَتْ بهِ الآفةُ، إنَّمَا هُوَ فى صَدْرِ الظَّبْيَةِ، أجْمعَ عَلَى الْبَحْثِ عَلَيْه، والتَّنْقيبِ عَنْهُ؛ لعلَّهُ يَظْفَرُ به، وَيَرَى آفَتَهُ، فيُزِيلَها .

٥ — أمـــلٌ وَرَجاءٌ

ثم إنه خافَ أنْ يكونَ نفسُ فِعلِهِ هذا، أعظمَ مِنْ تلكَ الآفةِ التى نَزَلَتْ بتلكَ الظَّبْيَةِ . وَقالَ — فى نفسهِ — :

«شَدَّ ما أخشى أنْ ينقلِبَ عَملِى من الخيرِ إلى الشرِّ، وأن يكونَ سَعْيِى لنجاةِ الظَّبيةِ سبباً فى القضاءِ عليها . ومن يُدْرِينى : لَعلَّنى إذا شَققْتُ صدرَها : أهلكتُها، وقطعْتُ الأمَلَ فى حياتِها ! »

ثم إنه تفكرَ، وأطالَ التأمُّلَ، وأنعمَ النظرَ، وظلَّ يُسائِلُ نفسَهُ : « هل رأى من الوُحوشِ — وسِواها — مَنْ صار فى مِثلِ تلك الحالِ، إلى مِثلِ حالهِ الأولى ؟ »

فلم يجد شيئاً، وثمَّةَ أيقَنَ أنهُ — إذا تركَ الظَّبيةَ على تلك الحالِ — فليس له من أمَلٍ فى عَوْدَةِ الحياةِ إليهـــا . وَبَقِيَ له بعضُ رجاءٍ فى رُجوعها إلى الحياةِ — كرَّةً أخرَى — إنْ هُو وَجَدَ ذلكَ العُضْوَ، واهتدى إلى مَكمَنِ الداءِ، وأزالَ الآفةَ عنهُ .

٦ – تَشْرِيحُ الظَّبْيَــةِ

فَعزَمَ « ابنُ يَقظانَ » عَلَى شَقِّ صدرِها، والتفتيشِ عما فيه ؛ ولم يَتردَّدْ في إنفَاذِ عزْمِهِ لحظَةً بعد ذلكَ، فاتَّخذَ – من كُسورِ الأحْجارِ الصُّلْبةِ، وشُقوقِ القصبِ اليابسةِ – أشباهَ السَّكاكِينِ، وشقَّ بها بين أضلاعِ الظَّبْيةِ، وقد امْتلأَ قلبُهُ أملاً ورجاءً بالنَّجاحِ في سَعيهِ.

فلما قَطَعَ اللحمَ الذى بين الأضلاعِ، وأفْضى إلى الحِجابِ المُسْتَبطِنِ للأضلاعِ : رآهُ قويًّا.

وثَمَّةَ قوِيَ ظَنُّهُ بأنَّ مثلَ ذلك الحِجابِ القويِّ، لا يكونُ إلاَّ لِمثلِ ذلك العُضْوِ الذى يَبعثُ الحياةَ في جميعِ أرْجاءِ الجسمِ، وطَمِعَ بأنهُ – إذا تجاوزَهُ – ظَفِرَ بطَلِبتِهِ، وأدركَ غايتَهُ التي يَسْعَى إليها.

فحاولَ شَقَّ هذا الحِجابِ، فلم يَستطعْ إلى ذلك سبيلاً، وصَعُبَ عليه أنْ يُحَقِّقَ إرْبَتهُ، لِعدَمِ وُجودِ الآلاتِ التي تُمكِّنُهُ من ذلك، فلم يكن عندهُ من القواطعِ إلاَّ الحِجارَةُ، والقصبُ اليابسُ، كما حَدَّثْتكَ بذلك.

ولكنَّ « ابنَ يَقظَانَ » آلَى على نفسه أنْ يُدْرِكَ غايتَهُ ؛ فلم تُعْوِزْهُ الحيلةُ، وبذَلَ جُهدَهُ حتى اسْتَجَدَّ تلك القواطعَ واستَحَدَّها ؛ وتلطَّفَ في خَرْقِ ذلك الحجابِ، حتى انْخَرَقَ له، فأفْضى إلى الرِّئةِ.

فظَنَّ – أوّلَ أمْرِهِ – أنَّ الرِّئةَ هِيَ مَطْلُوبُهُ، وحَسِبَ أنَّهَا غايتُهُ، ومَا زَال يُقَلِّبُهَا، وَيَطْلُبُ مَوْضِعَ الآفةِ بِهَا، لَعلَّهُ يُزِيلُهَا، أوْ يَرْفَعُ عَنْهَا مَا أَلَمَّ بِهَا مِنَ العَوائِقِ.

٧ — قَلبُ الظَّبيَــــةِ

وَكَانَ - أَوَّلاً - إِنَّمَا وَجَدَ مِنْهَا نِصفَهَا - الَّذى هُوَ فِى الْجَانِبِ الوَاحِدِ - فَلَمَّا رَآها مَائِلَةً إِلَى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ، وكَانَ قَدِ اعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ العُضْوَ — الذِى يبْحَثُ عنهُ جَاهِدًا — لاَ يَكُونُ إِلاَّ فِى الوَسَطِ فى عَرْضِ البَدَنِ، كَمَا هُوَ فِى الوَسَطِ فِى طُولِهِ. فَمَا زَالَ يُفَتِّشُ فِى وَسَطِ الصَّدْرِ حَتَّى أَلْفَى القَلْبَ، وَهُوَ مُجَلَّلٌ بِشَغَافٍ فِى غَايَةِ القُوَّةِ، مَرْبُوطٌ بِعَلاَئِقَ فِى غَايَةِ الوَثَاقَةِ والرِّقَّةِ، وَهِىَ مُطِيفَةٌ بِهِ مِنَ الجِهَةِ الَّتِى بَدَأَ بِالشَّقِّ مِنْهَا.

فَقَالَ — فِى نَفْسِهِ — :

« إِنْ كَانَ لِهَذَا العُضْوِ مِنَ الْجِهَةِ الأُخْرَى، مِثْلَ مَا لَهُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَــةِ، فَهُوَ فِى حَقِيقَةِ الوَسَطِ لا مَحَالَةَ ؛ وَهُوَ — بلاَ شَكٍّ — مَطْلوبِى وَغايَتِى التى أَبْحَثُ عَنْها ، لاسِيَّما ما أَرَى لهُ منْ حُسْنِ الوَضْعِ ، وَجَمالِ الشَّــكْلِ ، وقِلَّةِ التَّشَتُّتِ ، وَقُوَّةِ اللَّحْمِ . وَهُو — إِلى ذلك — مَحْجُوبٌ بِمِثْلِ هذا الْحِجابِ الذى لَمْ أَرَ مِثْلَهُ لِشَىْءٍ منَ الأَعْضاءِ . »

فَبحَثَ عنِ الجانِبِ الآخَرِ منَ الصَّدْرِ، فوجد فيهِ الحجابَ الْمُتَبطِّنَ للأَضلاعِ ؛ ووَجَد الرِّئَةَ عَلَى مِثْلِ ما وَجَدهُ منْ هذهِ الجهةِ ، فحَــكَمَ بأَنَّ ذلك العُضْوَ هُو مطلوبُهُ .

فحاوَلَ هتْكَ حجابهِ ، وشَقَّ شَغافِهِ ، ولـكنَّهُ وَجَد مطْلَبَهُ عَسيراً ؛ فلَمْ يُبالِ بالْعَقَباتِ والمصاعِبِ ، واسْتطاعَ تَحْقيقَ رَغْبَتِه ، بعــد كَدٍّ واسْتِكْراهٍ ، واسْتِنْفَادٍ لِلْمَجْهودِ .

٨ — تَشْرِيحُ القَلْبِ

ثمَّ جرَّدَ قلبَ الظبيةِ ، فرآهُ — بادِئَ بَدْءٍ — مُصْمَتاً من كل جهةٍ — أعْنِي : أنَّهُ لا تجويفَ فيه — فنظرَ : هل يَرَى فيه آفةً ظاهرةً ؟ فلم يَرَ فيه شيئاً .

فشدَّ يَدَهُ على القلب ، مُنْعِماً النَّظَرَ ، مُطِيلاً التَّفرُّسَ : فتبيَّنَ لهُ أنَّ فيه تجويفاً !

فقالَ « ابنُ يقظانَ » — فى نفسهِ — :

« لعلَّ مطلوبِى الأقصَى ، إنما هو فى داخِلِ هذا العُضْوِ ، وأنا إلى الآنَ لم أصِلْ إليه . »

ولم يكدْ يدورُ بخَلَدِهِ هذا الخاطرُ ، حتى أسْرَعَ بإنفاذهِ ، ليتكَشَّفَ جَلِيَّةَ الأمر ؛ وشقَّ ذلك القلبَ ، فألْفَى فيه تجويفَيْنِ اثنيْنِ ، أحدُهما من الجهةِ اليمنى ، والآخرُ من الجهةِ اليسرى .

فبَحَثَ « ابنُ يَقْظانَ » — فاحِصاً — عن التجويفِ الأيمنِ ، فرآهُ مملوءاً بِقِطَعٍ من الدمِ الغليظِ المُتَجَمِّدِ .

ثمَّ فحصَ عن التجويفِ الأيسر ، فرآهُ خالياً ، لا شَيْءَ فيه .

فقال « ابنُ يقظان » :

« لَنْ يَعْدُوَ مَطْلَبِي أن يكونَ مَسكنُهُ أحدَ هذيْنِ البيتَيْنِ ! »

ثم اسْتأنفَ قائلاً :

«أمَّا هذا البيتُ الأيمنُ، فلا أرَى فيه غيرَ هذا الدَّمِ المُنعقِدِ، ولا شَكَّ أن هذا الدمَ لم يَنعَقِدْ إلاَّ بعد أن صارَ الجسمُ كُلُّهُ إلى هذا الحالِ . »

فأيقَنَ « ابنُ يقظَانَ » أنه لم يَظْفَرْ بطَلِبَتِهِ ، ولم يُدْرِكْ غايَتَهُ ، وقالَ — فى نفسه — مُتَعَجِّباً :

« لقد طَالَمَا شاهدتُ أنَّ الدِّماءَ كلَّها — متَى خَرَجتْ وسالَتْ — انعقدَتْ ، وجَمَدَتْ ، وأصبحتْ فى مِثْلِ هذا الدمِ ، وهو — فيما أرَى — كسائِرِ الدماءِ التى تَجْرى فى جميع أعضاءِ الجسِمِ بلا استِثْنَاءٍ ، وليس يَخْتَصُّ بها عُضْوٌ دُونَ عُضْوٍ آخرَ ، وليس مطلوبى بهـذه الصِّفةِ . إنما أبحثُ عن سِرِّ الحياةِ فى هذا الموضع ، الذى أجدُنِى لا أستغنِى عنه طَرْفَةَ عَيْنٍ ؛ أَعْنِى هذا القلبَ النَّابضَ، الذى أشعُر بأنه يَبعثُ فِىَّ الحركَةَ والنشاطَ.

أمَّا هذا الدمُ ، فلا خطرَ لَهُ ، وَلَيْسَ هُوَ سِرَّ الحيَاةِ ، فكَمْ مَرَّةٍ جَرَحَتْنِى الوُحوشُ فى أثناءِ حَرْبِى معَها ، فسالَ مِنِّى كثيرٌ من الدَّمِ ، فما ضَرَّنِى فِقْدَانُهُ ، ولا أفْقَدَنى شَيْئاً مِنْ أفْعَالِى .

وعِنْدِى أنَّ هذا الْبَيْتَ . الأيْمَنَ ، لَيْسَ فيهِ طَلِبَتِى .

أمَّا البَيْتُ الأيْسَرُ ، فإنِى أَرَاهُ خَالياً ، لا شَىْءَ فِيهِ ، ولِأمْرٍ مَّا : خَلاَ هذَا الْبَيْتُ مِمَّا كانَ فِيهِ ، وما أَرَى أنَّ ذلك باطلٌ ، فإنى رأيْتُ أنَّ كُلَّ عُضْوٍ منَ الأعْضَاءِ إنَّما خُلِقَ لِفِعْلٍ يَخْتَصُّ بهِ ، فكيفَ خَلا هذَا البَيْتُ وتعطَّلَ ؟ لا شَكَّ أنَّ القُوَّةَ الَّتِى كانَتْ تَسْكُنُهُ قَدِ ارْتَحلَتْ عَنْهُ ، فَتَعطَّلَتْ حركَةُ الْجِسْمِ كُلِّهِ بَعْدَهُ .

وما أَرَى الجِسْم – بَعْدَ ذَلِكَ – إِلاَّ خَسِيسًا تافِهًا، لا قِيمَةَ لَهُ ولا خَطَرَ؛ بَعْدَ أَنِ ارْتَحلَتْ عَنْهُ تلك القُوَّةُ، الَّتِي كانتْ تَبْعَثُ فيهِ الحياةَ.»

*
* *

وأطالَ التَّفْكِيرَ والبَحْثَ، فَأَيْقَنَ أَنَّ أُمَّهُ – الَّتِي كانتْ تُحِبُّهُ وتَعْطِفُ عَلَيْهِ – لَيْسَتْ فى هذا الْجَسَدِ الْمَيِّتِ، وإِنَّمَا هِيَ فى تلك القُوَّةِ الْخَفِيَّةِ، الَّتِي كانتْ تُحَرِّكُ هذا الجسَدَ الهَامِدَ!

وعَرَفَ «ابْنُ يَقْظَانَ» أَنَّ الْجَسدَ الْحَيَوَانِيَّ: إِنَّما هُو – بِجُمْلَتِهِ – أَشْبَهُ شَيْءٍ بآلَةٍ تُحرِّكُها الرُّوحُ، أَوْ هُوَ كالْعَصَا الَّتِي يَتَّخِذُها الإِنْسَانُ لِقِتَالِ الوُحُوشِ.

٩ – دَفْنُ الْجُثَّـــة

وفِي خِلاَلِ ذلكَ نَتُنَ ذَلِكَ الجِسْمُ، وفاحَتْ منهُ روائِحُ كَرِيهةٌ، فزادَ نُفُورُ «ابنِ يَقْظَانَ» مِنْهُ، وَوَدَّ أَنْ لاَ يَراهُ.

وحارَ «ابنُ يقظَانَ» فى أَمْرِه، فَلَمْ يَدْرِ: كَيْفَ يُوارِى ذلك الجسمَ؟ وإِنَّهُ لَحَائِرٌ لا يَدْرِى: كَيْفَ يصْنَعُ؟ إِذْ رأَى غُرابَيْنِ يقتَتِلانِ، فوقَفَ يتأمَّلُ بُرْهَةً، حتَّى رأى أَحَدَهُما يُلْقِى الآخرَ مَيِّتاً.

ثم جعلَ الحيُّ يبحثُ – فى الأرضِ – حتى حفرَ حُفْرَةً، فَوارَى فيها ذلك الميِّتَ بالتُّرابِ.

فقال « ابنُ يَقظانَ » — فى نفسه — :

« ما أحسنَ ما صَنعَ هذا الغرابُ فى مواراةِ جِيفَةِ صاحبهِ ! وإن كان قد أساء فى قَتلهِ إيَّاهُ .



فما كان أَجْدَرنى بالاِهتداءِ إلَى هذا الفعل ! وما أشدَّ غَبائى حين تحيَّرْتُ فى دَفْنِ أُمِّى ! »

ثم أسرَع « ابنُ يقظانَ » يحفرَ حُفْرةً فى الأرض ، وألقى فيها جَسَدَ أُمِّهِ ، وحَثَا عليها الترابَ .

الفصل الثالث

١ – جَوْلَةٌ في الجزيرةِ

وبقى « ابنُ يقظانَ » يتفكَّرُ فى ذلك الشىءِ المُصرِّفِ للجسدِ ، أعْنِى : الرُّوحَ الَّذى يبعثُ الحياةَ فى الجسمِ ، فإذا غادرَهُ همَدَ وَفسَدَ ، ولم تبقَ للجسمِ قيمةٌ .

وظل يُطيلُ التأمُّلَ والتفكيرَ فى ذلك الرُّوحِ ، ولا يَدْرِى : مَا هُو ؟ وقد حار فى أمره ، وتملَّكتهُ الدهشةُ .

غَيرَ أنه كان ينظرُ إلى أشخاصِ الظِّباءِ كلِّها ، فيَراها على شكلِ أُمِّهِ الظَّبيةِ ، وعلى صورتها ؛ فكان يَغْلِبُ على ظنِّه أن كلَّ واحد من هذه الظِّباءِ المتشابهةِ الأشكالِ ، إنما يُحرِّكه ويصرِّفهُ شىءٌ ، هو مثلُ ذلك الشىءِ الذى كان يُحرِّكُ أُمَّهُ ويصرِّفُها ، أَعْنِى ذلكَ الرُّوحَ الذى يبعثُ الحياةَ فى الجسمِ ، وَيملؤُهُ نشاطاً وقوةً ، فإذا خرَجَ : بَطَلَتْ حرارةُ الجسم ، وأصبحَ لا قيمةَ له وَلا خَطرَ .

فكان يَألفُ الظِّباءَ ، وَيحِنُّ إليها لِمُشَابهتِهَا « أُمَّ عَزَّةَ » ويَحْنُو عليها بطبعهِ ، لمكانِ ذلكَ الشَّبَهِ .

وَبقِىَ على ذلكَ – بُرْهةً من الزمنِ – يَتصَفَّحُ أنواعَ الحيوانِ والنباتِ ، ويَطُوفُ بساحلِ تلكَ الجزيرةِ ، لِيَعلمَ : هلْ يَجدُ لنفسهِ شبيهاً فى هــذهِ الجزيرةِ ، كَمَا يَرَى – لِكلِّ واحدٍ من أَشخاصِ



الحيوانِ والنباتِ — أشباهاً كثيرةً ؟ فلا يجدُ شيئاً من ذلك .

وكانَ يَرَى البحرَ قد أحْدَقَ بالجزيرةِ — من كلِّ جهةٍ — فَيعتقِدُ أنه ليسَ فى الوُجودِ أرضٌ سِوى جَزِيرَتِهِ تلكَ .

٢ — ٱلاِهتِدَاءِ إلى النارِ

واتَّفَقَ — فى بعض الأحيانِ — أَنِ انْقَدَحَتْ نَارٌ فِى أَجَمَةٍ ، فلمَّا بَصُرَ بها ، رأى مَنظَراً هَالَهُ وأدْهَشَهُ ، وَخَلْقاً لم يَعتَدْهُ من قَبلُ ، فوقفَ يتعجَّبُ منها مَلِيًّا ، وما زال يَدْنُو منها — شيئاً فشيئاً — حتى أصبحَ على كَثَبٍ منها ، فرأى ما لِلنَّارِ من الضَّوْءِ الثاقبِ ، والفعلِ الغالِبِ ، فما تَعلَقُ بشيءٍ إلاَّ أتَتْ عليه ، وأحالَتهُ إلى نفسها .



فاشتَدَّ عَجَبُ «ابنِ يقظَانَ» ، وَتَعاظَمَتهُ الدَّهشةُ. وَحَمَلهُ العَجبُ بها ، وما رَكَّبَ اللهُ — تعالَى — فى طِباعه من الْجُرْأَةِ والقُوَّةِ ، على أَن يَمُدَّ يَدَهُ إلى النارِ ؛ وأَرادَ أن يَأْخُذَ منها قَبساً ، فلما باشَرَها : أحْرقَتْ يَدهُ ، ولم يَسْتَطِعِ القبْضَ عليها .

٣ — فضلُ النَّـــارِ

ثمَّ اهتدَى إلى أن يَأخذ عُوداً لم تَستوْلِ النارُ على جَميعِهِ ، فأَخذَ بِطرفهِ السليمِ ، والنارُ مُشتعِلةٌ فى طرفهِ الآخَرِ ؛ فتأَتَّى له ذلك ، وَسهُلَ عليه أن يُمْسِكَ بِالْعُودِ من غيرِ أَنْ تصِلَ إلى يَدِهِ النارُ ، ثم حَملَهُ إلى مَوضعهِ الذى كان يَاوِى إليهِ .

وكان « حىُّ بنُ يقظانَ » قد خَلاَ فى جُحرٍ — كانَ استحسنَهُ لِلسُّكْنَى قبلَ ذلكَ — فصار يُمِدُّ تلكَ النـــارَ بالحشيشِ والحطبِ الجَزْلِ ، وَيَتعهَّدُها — لَيلاً ونهاراً — استِحساناً لها ، وَتعجُّباً منها .

وكانَ يَزِيدُ أُنسُهُ بها — لَيلاً — لأنها كانتْ تقومُ له مَقامَ الشَّمْسِ فى الضِّياءِ والدِّفْءِ ، فَعظُمَ بها وَلُوعُهُ ، واشتدَّ لها حُبُّهُ ، وزادَ عليها إِقبالُهُ ، واعتقدَ أنها أفضلُ الأشياءِ الَّتى لَديهِ .

٤ — قُوَّةُ النَّـــارِ

وكانَ يَرَاها — دائماً — تتحرَّكُ إلى أَعْلَى ، وَتطلُبُ السُّمُوَّ ، فَغلَبَ على ظَنِّهِ أَنها من جُملةِ الجواهِرِ السماويةِ التى يُشاهِدُها مُتأَلِّقةً فى السَّماءِ .

وكَانَ « ابْنُ يَقظَانَ » يَختبِرُ قُوَّةَ النَّارِ فِى جَمِيعِ الأَشْيَاءِ ، بِأَنْ يُلقِيهَا فِيهَا ، فَيرَاهَا مُستَوْلِيَةً عَلَى كُلِّ شَيءٍ ، إِمَّا بسُرْعةٍ وإِمَّا ببُطْءٍ ، بِحسَبِ قُوَّةِ استِعْدَادِ الجِسْمِ — الَّذِى كَانَ يُلقِيهِ فِيهَا — لِلاحْتِرَاقِ ، أَوْ ضَعفِهِ .

٥ – الشـــواء

وكانَ مِنْ جُمْلَةِ مَا أَلْقَى فِيهَا – عَلَى سَبيلِ الاِخْتبَارِ لِقُوَّتِهَا – شَىْءٌ مِنْ أَصْنَافِ الْحَيَوَانِ البَحْرِيَّةِ ، كَانَ قَدْ أَلْقَاهُ البَحْرُ إِلَى سَاحِلِهِ .

فَلَمَّا أَنْضَجَتِ النَّارُ ذَلِكَ الْحَيَوَانَ البَحْرِىَّ، هَبَّتْ على «ابنِ يقظانَ» رَائِحَةُ ذَلِكَ الشِّوَاءِ اللَّذِيذِ ، وَسَطَعَ قُتَارُهُ ، فَتحركتْ شَهْوَتُه إِلَيْهِ ، فَأَكَلَ مِنْهُ شَيئًا ، فَاسْتَطَابَهُ .

فَاعْتَادَ « ابنُ يَقْظَانَ » – مُنذُ ذَلِكَ اليَوْمِ – أَكْلَ اللحْمِ ، وَأَقْبَلَ عَلَى الشِّوَاءِ، وَآثَرَهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ أَلْوَانِ الأَطعِمةِ المُخْتَلفةِ الأُخْرَى .

فَصَرَّفَ الْحِيلةَ فِي صَيْدِ البَرِّ والبَحْرِ ، حَتَّى مَهَرَ فِي ذَلِكَ ، وَزَادَتْ مَحَبَّتُهُ فِي النَّارِ ، وشَغَفُهُ بِهَا ، لِمَا رَآهُ مِنْ فَوَائِدِهَا ؛ إِذْ تَأَتَّى لَهُ بِهَا – مِنْ وُجُوهِ الاِغْتِذَاءِ الطَّيِّبِ – شَىءٌ لَمْ يَتَأَتَّ لَهُ قَبلَ ذَلِكَ .

٦ – ظُنُونُ ابنِ يَقْظَانَ

وَاشْتَدَّ شَغَفُ «ابْنِ يَقْظَانَ» بِهَا ، لِمَا رَأَى مِنْ حُسْنِ آثَارِهَا ، وَقُوَّةِ اقْتِدَارِهَا ؛ وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيْهِ ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ ، أَنَّ الشَّىْءَ الَّذِى ارْتَحَلَ مِنْ قَلْبِ أُمِّهِ الظَّبْيَةِ الَّتِي أَنْشَأَتْهُ وَرَبَّتْهُ : كَانَ مِنْ جَوْهَرِ النَّارِ ، أَوْ مِنْ شَىْءٍ يُجَانِسُهُ .

وَأَكَّدَ ذَلِكَ - فِي ظَنِّهِ - مَا كَانَ يَرَاهُ مِنْ حَرَارَةِ الْحَيَوَانِ، طُولَ مُدَّةِ حَيَاتِهِ، وَبُرُودَتِهِ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ.

وَكَانَ يَرَى هَذِهِ القَاعِدَةَ مُطَّرِدَةً دائماً، لا تختلُّ وَلَا يُسْتَثْنَى مِنها شَيْءٌ. وَقَدْ زَادَ وُثُوقَهُ - بِصِحَّةِ مَا اهْتَدَى إِلَيْهِ - أَنَّهُ كَانَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ حَرَارَةً شَدِيدَةً عِنْدَ صَدْرِهِ، بِإِزَاءِ المَوْضِعِ الَّذِي كَانَ قَدْ شَقَّهُ مِنَ الظَّبْيَةِ.

فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ لَوْ أَخَذَ حَيَوَانًا، وَشَقَّ قَلْبَهُ، وَنَظَرَ إِلَى ذَلِكَ التَّجْوِيفِ الَّذِي صَادَفَهُ خَالِياً - عِنْدَ ما شَقَّ صَدْرَ أُمِّهِ الظَّبِيةِ - لَرَآه فِي هَذَا الحَيَوَانِ الحَيِّ، وَهُوَ مَمْلُوءٌ بِذَلِكَ الشَّيْءِ السَّاكِنِ فِيهِ.

ثُمَّ قَالَ « ابنُ يقظَانَ » - فِي نَفسِهِ - :

« وَمَنْ يُدْرِينِي : لَعلَّ شَيئاً مِنْ جَوْهَرِ هَذِهِ النَّارِ، أَوْ ما يُشابِهُهُ، أَوْ قَرِيباً مِنهُ، هُوَ الَّذِي يَبْعثُ الحرارةَ والحياةَ فِي قَلبِ الحيوَانِ؟ فلا بُدَّ لِي منَ الفحصِ عَنهُ، لَعلَّ فيهِ شَيئاً مِنَ الضَّوْءِ أَوِ الحَرَارَةِ.

٧ - قَلْبُ الوَحْشِ

وَلَمْ يَكدْ يَستقِرُّ فِي نَفْسِهِ هذَا الخَاطِرُ، حتَّى عَمَدَ إِلَى بَعْضِ الوُحُوشِ، وأَوثقَ فِيهِ كِتافاً، وَشَقَّهُ - عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي شَقَّ بِهَا صَدْرَ الظَّبْيَةِ - حَتَّى وَصَلَ إِلَى القَلْبِ، فَقصدَ - أَوَّلاً - إِلَى الجِهَةِ اليُسْرَى منهُ وَشَقَّهَا، فَرأَى ذلكَ الفراغَ مَمْلُوءًا بِهَوَاءٍ بُخَارِيٍّ يُشْبِهُ

الضَّبَابَ الأَبيضَ ، فَأَدْخلَ إِصْبعَهُ فيهِ ، فوَجدهُ منَ الحَرارَةِ بحَيْثُ يَكادُ يُحْرِقُهُ ، وَمَاتَ ذلِكَ الحيَوَانُ عَلَى الفوْرِ .

فَصَحَّ عِنْدَ « ابن يَقْظَانَ » أنَّ ذلِكَ البُخارَ الحَارَّ ، هُوَ الَّذِي كَانَ يُحَرِّكُ هذا الحيَوَانَ ، وَأَنَّ فى كلِّ شخصٍ — مِنْ أشْخاصِ الحيوَانِ — مِثْلَ ذلكَ ، وَمَتَى انفصَلَ عَنِ الحيوَانِ : ماتَ !

ثم تحرَّكَتْ فى نفْسه الشَّهْوَةُ للبَحْثِ عن سائرِ أعضاءِ الحيوانِ ، وَترْتيبها ، وأَوْضاعِها ، وَكَمِّيَّاتِها ، وكيفيةِ ارْتباطِ بَعضِها ببعضٍ . وكيفَ تَسْتمِدُّ الحياةَ من هذا البُخارِ الحارِّ ؟ وكيفَ يَسْتمِرُّ هذا البُخَارُ ، وَيبقى طولَ مُدَّةِ بقَائِها ؟ ومن أيْنَ يَسْتمِدُّه الحيوانُ ؟ وكَيفَ لا تَنفَدُ حرارَتُهُ ؟

وظلَّ يُسائِلُ نفسه هذه الأسئلةَ وَأشبَاهَها ، وَيتَتَبَّعُ ذلكَ كلَّهُ بتَشريحِ أنواعِ الحيوانِ كلِّهِ — من الأحياء والأمواتِ — لعلَّهُ يهتَدِى إلى سِرِّ الحياةِ ، ومصدرِ الحرَكَةِ والقوةِ .

ولم يَزلْ يُنعمُ النظرَ فيها ، وَيُجِيدُ الفكرةَ ، حتى بَلغَ — فى ذلكَ كلِّهِ — مَبلغَ كِبارِ العلماءِ !

٨ — الرُّوحُ والجسَدُ

فَتبيَّنَ له : أنَّ كلَّ شخصٍ من أشخاصِ الحيوانِ — وإن كان كثيراً بأعضائهِ ، وَتفَنُّنِ حَواسهِ وحركاتهِ — واحِدٌ بذلكَ الرُّوح الذى يَتماثلُ فى كل كائن حَيٍّ ، وَرأى أن مَبدأَ هذا الرُّوحِ مِن قَرارٍ واحدٍ ،

وأنَّ انقسامَه — فى سائرِ أعضاء الجسمِ — مُنبعِثٌ منه ، وأنَّ جميعَ الأعضاءِ — على اختلافِ أعمالِها ، وتبايُنِ أشكالِها ، وتفاوُتِ أخطارِها — إنما هى خادِمةٌ بهذا الرُّوحِ ، أَوْ مُؤَدِّيَةٌ عنه رَغَباتِهِ ، وَمُنفذةٌ لإرادتهِ ، وخادِمةٌ لِمشيئتهِ .

وَأَدْرَكَ « ابنُ يقظانَ » أن مَنزِلةَ ذلكَ الرُّوحِ فى تصريفِ الجسَدِ ، كمنزِلةِ الإنسانِ من الأدواتِ والآلاتِ الَّتى يَسْتعمِلُها ، أو كمنزِلةِ من يُحارِبُ الأعداءَ بالسِّلاحِ التَّامِّ ، أو يَصيدُ جميعَ صَيْدِ البحرِ والبرِّ ، فيُعِدُّ لِكلِّ جِنْسٍ آلةً ليَصيدَهُ بها ، وَيُقسِّمُ أَدَوَاتِ الحربِ التى يُحَارِبُ بها إلى أقسامٍ مُختلفَةٍ ؛ فيتخذُ بعضَها لِحمايتِهِ ، والدِّفَاعِ عن نفسه مِمَّنْ يُهاجِمُه ، وَيَتَّخِذ بعضَها الآخَرَ لِمهاجمةِ غيرِه ، والنِّكايةِ بهِ ، والتغلُّبِ عليهِ .

وكذلكَ آلاتُ الصَّيدِ تَنقسِمُ إلى ما يَصْلُحُ لِحيوانِ البحرِ ، وإلى ما يَصْلُحُ لِحَيوانِ البرِّ .

وكذلكَ الأشياءُ — التى يُشَرَّحُ بها أجْسادَ الحيوانِ — تَنقسمُ إلى ما يَصْلُحُ للشَّقِّ ، وإلى ما يَصْلُحُ لِلكسْرِ ، وإلى ما يَصْلُحُ للثَّقْبِ .

وَرأى أن تلكَ الأدواتِ المختلفَةَ ، والأعمالَ المتنوِّعةَ ، إنمـا يقومُ بها شَخصٌ واحِدٌ ، وَيقومُ بِأَدائِها — بمُفردِهِ — بَدَنٌ واحدٌ ، ويُصرِّفها أنحاءً من التَّصْريفِ ، بِحَسَبِ ما تَصْلُحُ لَهُ كُلُّ آلةٍ ، وبحسبِ الغاياتِ التى تُلْتَمَسُ بذلك التَّصرُّف .

٩ — أَدَوَاتُ الْحَيَاةِ

وأطالَ « أبنُ يقظانَ » تأمُّلَهُ فى هذهِ الحقائِقِ — الَّتى هداهُ إليها عَقلُهُ وتفكيرُهُ — فرآها صحيحةً لا يتطرَّقُ إليْهَا الشَّكُّ، ورأى ذلك المثلَ مُنطبقاً أشدَّ الانْطِباقِ على ذلك الرُّوحِ الْحيوانىِّ، الَّذِى يُصَرِّفُ كلَّ أعْضاءِ الْجسَدِ، ويُشِعُّ الحياةَ فى كلِّ جُزْءٍ مِنْ أجْزائهِ.

وأيْقن « ابنُ يقظانَ » أنَّ الرُّوحَ الحيوانىَّ وَاحِدٌ، ولكنَّ أفعالَهُ تختلِفُ باختلافِ الأَدَواتِ الَّتى يُبَاشِرُ بهَا أعمالَهُ، ويُحقِّقُ بها مشيئتَهُ.

فإذَا عَمِلَ — بآلَةِ الْعَيْنِ — كانَ فِعْلُهُ : إبْصَاراً.

وإذَا عَمِلَ — بآلَةِ الأُذُنِ — كانَ فِعْلُهُ : سَمْعاً.

وإذَا عَمِلَ — بآلَةِ الأَنْفِ — كانَ فِعْلُهُ : شَمًّا.

وإذَا عَمِلَ — بآلَةِ اللِّسَانِ — كانَ فِعْلُهُ : ذَوْقاً.

وإذَا عَمِلَ — بالْجِلْدِ واللَّحْمِ — كانَ فِعْلُهُ : لَمْسًا.

وإذَا عَمِلَ — بأَحَدِ الأَعْضَاءِ - كانَ فِعْلُهُ : حرَكَةً.

وإذَا عَمِلَ — بالْكَبِدِ — كانَ فِعْلُهُ : غِذاءً.

١٠ — فَضْلُ الرُّوحِ

وَلِكلٍّ واحِدٍ — من هذهِ — أعضاءٌ تَخدُمُهُ، ولا يَتِمُّ — لشىءٍ من هذهِ — فِعلٌ إلاَّ بما يصِلُ إليهـا من ذلك الرُّوحِ، على الطُّرُقِ الَّتى

تُسمَّى : عَصَباً . ومتَى انقَطعَتْ تلك الطُّـرُقُ — أوِ انْسَدَّتْ — تَعطَّل فِعلُ ذلكَ العُضوِ .

وهذا الرُّوحُ يَسْرِي فى جميعِ الأعضاء ، فأىُّ عُضوٍ منها عَدِمَ هذا الرُّوحَ — بِسَبَبٍ من الأسبابِ — تَعطَّلَ فِعلُهُ ، وصارَ بِمنزِلَةِ الآلةِ المُطَّرَحةِ ، التى لا يُصرِّفُها الفاعلُ ، ولا يَنتَفِعُ بها .

فإنْ خَرجَ هذا الرُّوحُ — بجُملتهِ — من الجسدِ ، أوْ فَنِيَ — بوَجهٍ من الوُجوهِ — تعطَّلَ الجسدُ كلُّه ، وصارَ إلى حالةِ الموتِ .

*

الفصل الرابع

١ — فِي الحادِيَةِ والعِشْرِينَ

ومَضَى عَلَى « حَيّ بنِ يَقْظَانَ » إحْدَى وعِشْرُونَ سنةً ، وَقد تفنَّنَ — فى خِلالِ هذهِ المدَّةِ — فى وُجُوهِ حِيَـلِهِ ، واكْتَسَى بجلودِ الحيواناتِ التى كان يُعْنَى بتَشْرِيحِهاَ . ودَرْسِهاَ ، وَصنعَ لهُ من تلك الجلودِ أحذيةً يَنْتَعِلُهاَ و يَحْتَذِيهاَ فِى أَثْناءِ المَشْىِ والتَّجْوَالِ .

واتخذَ الْخُيُوطَ من أَشْعَارِ الدَّوَابِّ ، وَقَصَبِ القِنَّبِ ، وكلِّ نبَاتٍ ذِى خَيْطٍ . وَصنعَ الخطاطِيفَ مِنَ الشَّوْكِ القوىِّ ، والقَصَبِ المُحَدَّدِ عَلَى الْحِجَارَةِ .

٢ — بَيْتُ ابْنِ يقظانَ

وقدِ اهتَدَى — إلى البِنَاء — بما رأَى من فعلِ الْخَطَاطِيفِ ، فَقَلَّدَهَا فى بناء مَسَاكِنهاَ وَأَوْكارِهاَ ، واتخذَ لَهُ مَخْزَناً لِفَضْلَةِ غِذَائِهِ ، وَبيتاً لِسُكْنَاهُ ، وحَصَّنَهُمَاَ ببـابٍ من القَصَبِ المَرْبوطِ بَعْضُـهُ ببَعْضٍ ، لِئَلَّا يَصِلَ إليـهِ شىءٌ من الحيوانِ ، عند مَغيبِهِ عن تلك الجهةِ فى بَعْضِ شُؤُونِهِ .

وهكذَا وُفِّقَ « ابنُ يقظانَ » إلى بنَاءِ بيتـهِ ، وتنظيمِ أُمُورِهِ : بِفَضْلِ رَجَاحَةِ عقلهِ ، وَدِقَّةِ مُلاحَظَتِهِ ، وحُسْنِ تَأَمُّلِهِ .

٣ — أدَوَاتُ الصَّيْدِ

وَاسْتَأْلَفَ « ابنُ يقْظَانَ » جَوَارِحَ الطَّيْرِ، لِيَسْتَعِينَ بِهَا فِي الصَّيْدِ، وَاتَّخَذَ الدَّوَاجِنَ لِيَنْتَفِعَ بِبَيْضِهَا وَفِرَاخِهَا.

وَاتَّخَذَ مِنْ صَيَاصِي البَقَرِ الوَحْشِيَّةِ — أَعْنِي: مِنْ قُرُونِهَا — أَشْبَاهَ الأَسِنَّةِ، وَرَكَّبَهَا فِي القَصَبِ القَوِيِّ، وَفِي عِصِيِّ الزَّانِ وَغَيْرِهَا، وَاسْتَعَانَ — فِي صَقْلِهَا — بِالنَّارِ، وَبِحُرُوفِ الْحِجَارَةِ، حَتَّى صَارَتْ شِبْهَ الرِّمَاحِ.

وَاتَّخَذَ تُرْسَهُ مِنْ جُلُودٍ مُضَاعَفَةٍ، وَإِنَّمَا اضْطَرَّهُ إِلَى اتِّخَاذِهَا مَا رَآهُ مِنْ عَجْزِهِ عَنْ مُقَاوَمَةِ الوُحُوشِ القَوِيَّةِ، لِفِقْدَانِ السِّلَاحِ الطَّبِيعِيِّ.

٤ — تَذْلِيلُ الدَّوَابِّ

وَرَأَى « ابنُ يقْظَانَ » أَنَّ يَدَهُ تَفِي لَهُ بِكُلِّ مَا فَاتَهُ مِنْ ضُرُوبِ النَّقْصِ وَالْحَاجَةِ، وَكَانَ لَا يُقَاوِمُهُ شَيْءٌ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ — عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، وَتَبَايُنِ أَجْنَاسِهَا — فَعَرَفَ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — فَضْلَ يَدَيْهِ عَلَيْهِ، وَأَكْبَرَهُمَا إِكْبَارًا عَظِيمًا.

وَلَكِنَّهُ رَأَى أَنَّ بَعْضَ الْحَيَوَانَاتِ يَفِرُّ عَنْهُ، فَيُعْجِزُهُ هَرَبًا، وَلَا يَسْتَطِيعُ اللَّحَاقَ بِهِ، مَهْمَا يُجْهِدْ نَفْسَهُ فِي العَدْوِ خَلْفَهُ، فَفَكَّرَ « ابنُ يقْظَانَ » فِي وَجْهِ الْحِيلَةِ فِي ذَلِكَ، وَأَنْعَمَ النَّظَرَ، وَأَطَالَ التَّأَمُّلَ وَالتَّفْكِيرَ؛ فَلَمْ يَرَ

أَنْجَحَ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَأَلَّفَ بَعْضَ الْحَيَوَانَاتِ الشَّدِيدَةِ الْعَدْوِ، وَيُحْسِنَ إِلَيْهَا بِالْغِذَاءِ الَّذِي يَصْلُحُ لَهَا، حَتَّى يَتَأَتَّى لَهُ الرُّكُوبُ عَلَيْهَا، وَمُطَارَدَةُ سَائِرِ الْحَيَوَانِ بِهَا .



وَكَانَ — بِتِلْكَ الْجَزِيرَةِ — خَيْلٌ بَرِّيَّةٌ، وَحُمُرٌ وَحْشِيَّةٌ،

فَاتَّخَذَ مِنْهَا مَا يَصْلُحُ لَهُ، وَرَاضَهَا حَتَّى كَمُلَ لَهُ بِهَا غَرَضُهُ، وَعَمِلَ عَلَيْهَا — مِنَ الْجُلُودِ — أَمْثَالَ الشَّكَائِمِ وَالسُّرُوجِ، فَتَأَتَّى لَهُ بِذَلِكَ

ما أَمَّلَهُ فى اللَّحَاقِ بِالْحَيَوانَاتِ الَّتِى صَعُبَتْ عَلَيْهِ الْحِيلَةُ — مِنْ قَبْلُ — فِى مُطَارَدَتِهَا وَأَخْذِهَا .

وَإِنَّمَا تَفَنَّنَ — فِى هَـذِهِ الأُمُورِ كلِّها — فِى وَقْتِ اشْتِغَالِهِ بِالتَّشْرِيحِ ، وَشَهْوَتِهِ فِى الدَّرْسِ، رَغْبَةً فِى الوُقُوفِ عَلَى خَصَائِصِ أَعْضَاءِ الْحَيَوَانِ ، وَ بِمَاذَا تَخْتَلِفُ ؟

وَلَمْ يَكَدْ يَبْلُغُ الْحَادِيَةَ والعِشْرِينَ — كَمَا أَسْلَفْنَا فِى أَوَّلِ هَذَا الفَصْلِ — حَتَّى بَرَعَ فِى ذَلِكَ ، وَأَتْقَنَهُ ، وَمَهَرَ فِيهِ .

٥ — بَعْدَ الحادِيَةِ والعِشْرِينَ

ثُمَّ إِنهُ - بعْدَ ذَلكَ — أَخَذَ فى مَآخِذَ مِن النَّظَرِ ، فَتَصَفَّحَ جَمِيعَ مَا حَوْلَهُ مِن الْحَيَوانَاتِ — عَلَى اخْتِلافِ أَنْوَاعِها — والنَّبَاتِ ، والمَعادِنِ ، وأَصْنافِ الْحِجارَةِ ، والتُّرَابِ ، والمَاءِ ، والبُخَارِ ، والثَّلْجِ ، والبَرْدِ ، والْحَرِّ ، والدُّخَانِ ، واللَّهِيبِ ؛ فَرَأَى لها أَوْصافاً كَثِيرَةً ، وَأَفْعالاً مُخْتَلِفَةً ، وَحَرَكاتٍ مُتَّفِقَةً وَمُتَضَادَّةً .

وَأَنْعَمَ النَّظَرَ فى ذَلك ، وَأَطَالَ التَّثَبُّتَ ، فَرَأَى أَنَّها تَتَّفِقُ بِبَعْضِ الصِّفَاتِ، وتَخْتَلِفُ بِبَعْضٍ، وَأَنَّها مِن الْجِهَةِ التى تَتَّفِقُ بها واحِدَةٌ ، وَمِن الْجِهَةِ التى تَخْتَلِفُ فِيها مُتَغايِرَةٌ وَمُتَكَثِّرَةٌ . فَكانَ تارَةً يَنْظُرُ فى خَصائِصِ الأَشْياءِ ، وَما يَنْفَرِدُ بِهِ بَعْضُها عَن بَعْضٍ ، فَتَكْثُرُ عِنْدَهُ كَثْرَةً تَخْرُجُ عَنِ الْحَصْرِ .

وكانَ إذا تأمَّلَ فى نَفْسِهِ ، وَأَنْعمَ النَّظَرَ فى أمْرِهِ ، تكَثَّرَتْ ذاتُهُ أَمامَهُ ، لِأَنَّهُ كانَ يَنْظُرُ إلى اخْتِلافِ أعْضائِهِ ، وَيرَى أَنَّ كلَّ وَاحِدٍ مِنْها مُنْفَرِدٌ بِفِعْلٍ وَصِفَةٍ تَخُصُّهُ . وكانَ يَنْظُرُ إلى كلِّ عُضْوٍ مِنْها ، فَيرَى أنهُ يَحْتَمِلُ القِسْمَةَ إلى أجْزاءٍ كثيرَةٍ جِدًّا ، فَحَكَمَ عَلَى ذاتِهِ بالْكَثْرَةِ ، وَكذَلكَ على ذاتِ كلِّ شَيْءٍ .

٦ - وَحدَةُ الإنْسانِ

ثم كان « ابنُ يقظانَ » يُجِيلُ بَصرَهُ ، ويُنعِمُ فِكْرَهُ ، ويُطِيلُ تأمُّلَه ، راجعاً إلى نَظَرٍ آخرَ ، من طريقٍ غيرِ الطريقِ الأوَّلِ .

فَيرَى أنَّ أعضاءَهُ وإنْ كانَتْ كثيرةً ، فهىَ - على كَثْرَتِها واختلافِ أعمالِهَا - مُتَّصِلٌ بعضُها ببعضٍ ، وليسَ بيْنَها أقلُّ انفِصالٍ .

فهِىَ - لذلكَ - وَاحدةٌ ، أوْ هىَ تكادُ تكونُ شيئاً واحداً ، لِأنها لا تختلِفُ إلاَّ بحسَبِ اختلافِ أفعالِهـا ، وقدْ نشأَ ذلكَ الاخْتِلافُ بسببِ ما يَصِلُ إليها من قُوَّةِ الرُّوحِ الْحَيَوانِيِّ الذى يَنتظِمُها جميعاً .

وقدْ عرَفَ « ابنُ يقظانَ » أنَّ ذلك الرُّوحَ الْحيَوانىَّ وَاحدٌ ، وَأنَّهُ يجْرِى فى سَائِرِ الأعْضَاءِ ، فيَبْعَثُ فيها الحياةَ ، وتُصبحُ كلُّهَا أشبهَ بالآلاتِ . فأيْقَنَ « ابنُ يقظانَ » - حينئذٍ - أنَّ ذَاتَهُ وَاحِدَةٌ ، وَإنِ اخْتَلَفَتْ أعْضاؤُهَا ، وَتعَدَّدَتْ أفْعَالُهَا وَصُوَرُهَا .

٧ — وَحْـدَةُ الحَيَوَانِ

ثمَّ أجَالَ بَصَرَهُ ، وَأطَالَ تَأمُّلَهُ فى جميعِ أنْواعِ الْحَيَوَانِ ، وَظَلَّ يَنظُرُ إلَى كُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا بِمُفْرَدِهِ ، كَالظِّبَاء ، وَالْخَيْـــلِ ، وَأَصْنَافِ الطَّيرِ — صِنفاً صِنفاً — فَمَاذَا رَأى ؟

لَقَدْ رَأى عَجباً ، وَهَدَاهُ فِكْرُهُ إلى نَتَائِجَ غَايةٍ فِي السَّدَادِ والصِّحَّةِ ، فَقَدْ كَانَ يَرَى أشْخَاصَ كُلِّ نَوْعٍ — مِنْ أنْوَاعِ الحيوَانِ — يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعضًا ، فِي أعْضَائِهِ الظَّاهِرةِ والبَاطِنَةِ ، وَالْإِدْرَاكاتِ ، والمَنَازِعِ ، وَلَا يَرَى بَيْنَهَا اخْتِلَافاً إلَّا فِي أشْيَاء يَسِيرَةٍ بِالْإِضَافةِ إلَى مَا اتَّفَقَتْ فِيهِ ، وَكَانَ يَحْـكُمُ بِأنَّ الرُّوحَ الَّذِي لِجَمِيعِ ذَلِكَ النَّوْعِ : شَيْءٌ وَاحِدٌ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْتَلِفْ إلَّا لِأنَّهُ انقَسَمَ عَلَى أجسادٍ كَثِيرَةٍ ، وَأَنَّهُ لوْ أمْكَنَ أنْ يَجْمَعَ جَمِيعَ الَّذِي افْـتَرَقَ فِي تِلْكَ الأجساد مِنْـهُ ، وَيَجْعلَهُ فِي وِعَاءٍ وَاحِدٍ ، لَـكَانَ كُلُّهُ شَيْئاً وَاحِداً . وَأَصْبَحَ بِمَـنْزِلَةِ مَاءٍ وَاحِدٍ ، وَشَرَابٍ وَاحِدٍ : تَفَرَّقَ عَلَى أوَانٍ كَثِيرَةٍ ، فَهُوَ — فِي حَالَةِ تَفرُّقِهِ وَجَمْعِهِ — شَيْءٌ وَاحِدٌ ، فَـكَانَ يَرَى نَوْعَ الظِّبَاءِ كُلَّهَا وَاحِداً — بِهَذَا النَّظَرِ — وَيَرَى نَوْعَ البَقَرِ كلَّه وَاحِداً ، وَنَوْعَ الْجِيادِ كُلَّهَا وَاحِداً ، وَهَـكَذَا . . . . .

وكَانَ يُشَبِّهُ أشْخَاصَ الْحَيَوَانَاتِ المُخْتَلِفَةِ بِأَعْضَاءِ الشَّخصِ الوَاحِدِ ، الَّتِي يَنْتَظِمُهَا رُوحٌ وَاحِدٌ ، وتَسرى فِيهَا حَيَاةٌ وَاحِدَةٌ ، فَهِيَ وَاحِدَةٌ وَإِنْ تَـكَثَّرتْ آحَادُهَا ، وتَعددتْ أفْرادُهَا .

٨ – الصِّفَاتُ العَامَّةُ

ثُمَّ كَانَ يَحْصُرُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الحيوانَاتِ كُلِّهَا في نفسِهِ، ويُجِيلُ بَصرَهُ فِيهَا، ويُطِيلُ تَأَمُّلَهَا، فَمَاذا يَرَى؟

يَرَى أَنَّهَا تَتَّفِقُ جَمِيعاً فى أَنَّهَا تُحِسُّ، وتَغتَذِي، وتَتَحرَّكُ – بِالْإِرادةِ – إِلى أَيِّ جِهَةٍ شَاءَتْ.

وَكَانَ «ابْنُ يَقظَانَ» قَدْ عَلِمَ أَنَّ الحِسَّ، والاغتذَاء، والحرَكَةَ: هِيَ أَخَصُّ أَفعَالِ الرُّوحِ الحيوانيِّ، وَأَنَّ سَائِرَ الأَشْيَاءِ الَّتِي تَختلِفُ فيها أَنْوَاعُ الحيوانِ – بَعدَ هَذَا الاتِّفاقِ – لَيستْ جَوْهَرِيَّةً، وَلَيْسَ لَهَا خَطَرٌ يُذْكَرُ، لِأَنَّهَا لَيْسَتْ شَدِيدَةَ الِاخْتِصاصِ بِالرُّوحِ الحيوانيِّ.

فَظهرَ لَهُ – بِهذَا التَّأَمُّلِ – أَنَّ الرُّوحَ الحيوانيَّ الذى لِجَمِيعِ جِنْسِ الحيوانِ هُوَ واحِدٌ بِالْحقيقةِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ اختِلافٌ يَسيرٌ – اخْتُصَّ بِهِ نَوعٌ دُونَ نَوعٍ – وقَدْ شَبَّهَ ذلكَ تَشْبِيهاً رَائعاً، فَقَالَ:

إِنَّ مَجْموعَ هَذِهِ الأَرْوَاحِ الكَثِيرَةِ – الَّتِي وُزِّعَتْ عَلَى أَفْرادِ الحيوانَاتِ – أَشْبهُ بِمَاءٍ واحِدٍ، مَقْسومٍ عَلَى أَوَانٍ كَثِيرَةٍ. على أَنَّ بَعضَهُ أَبْرَدُ مِنْ بَعضٍ، وَلكنَّهُ – فى أَصْلِهِ – وَاحِدٌ.

فَكَانَ «ابْنُ يَقْظانَ» يَرَى جِنسَ الحيوانِ كُلَّهُ واحِداً، بِهذا النَّوعِ مِنَ النَّظَرِ.

٩ — وحْدَةُ النبَاتِ

ثُمَّ كَانَ يَرْجِعُ إلى أنْواعِ النَباتِ — على اختلافِهَا — فيرَى أنْوَاعَها يُشْبِهُ بَعضُهَا بَعضًا — فى الأغْصَانِ، والْوَرَقِ، والزَّهْرِ، والثَّمرِ، وما إلَى ذَلِكَ — فَكَان يَقيسُهَا بِالحيوانِ، ويَعْلمُ أنَّ لَهَا شَيْئًا واحِداً اشْتَركَتْ فيهِ، وَهُوَ لَهَا بِمَنْزلَةِ الرُّوحِ للْحَيوانِ، وأنَّهَا — بِذَلكَ الشَّيءِ — وَاحِدٌ. وَكَذَلكَ أصْبحَ يَنظُرُ إلى جِنْسِ النَّبَاتِ كُلِّهِ، فَيَحْكُمُ بِاتِّحَادِهِ، بِحَسَبِ مَا يَرَاهُ مِن اتِّفَاقِ فعْلهِ فى أنْ يَغْتَذِيَ وَيَنْمُوَ.

١٠ — الحيَوَانُ والنَّبَاتُ

ثُمَّ كَانَ يَجْمعُ فى نَفْسِهِ — جِنسَ الْحيوانِ، وَجنسَ النَّبَاتِ، فَيرَاهما جميعاً مُتَّفِقَيْنِ فى الاغتذاءِ وَالنُّمُوِّ، إلاَّ أنَّ الحيوَانَ يَزِيدُ عَلَى النَّبَاتِ بِفضْلِ الْحسِّ والإِدْرَاكِ والانتقال، وَرُبمَا ظَهرَ فى النَّبَاتِ شىءٌ شَبيهٌ بِهِ، مِثلُ تَحوُّلِ وُجُوهِ الزَّهْرِ إلَى جِهةِ الشَّمْسِ، وَتَحرُّكِ عُرُوقِهِ إلَى جِهةِ الْغِذاءِ، وَأشْباهِ ذَلكَ.

فَظهرَ لَهُ — بِهذَا التَّأمُّلِ — أنَّ فى النَّباتِ، وَالحيوَانِ: شَيْئاً وَاحِداً مُشْتَرَكاً بَينهمَا، هُوَ فى أحَدهما: أتَمُّ وَأكملُ، وَفِى الآخرِ: قَدْ عَاقهُ عَائِقٌ، وأنَّ ذَلكَ بِمَنْزِلةِ ماءٍ وَاحدٍ، قُسِّمَ إلى قِسْمَيْن: أحدُهما جَامدٌ، وَالآخرُ سَيَّالٌ؛ وبذلك يرى «ابنُ يقظانَ» أن الحيوانَ، والنباتَ: مُتَّحِدَانِ.

١١ — خَصَائِصُ الجمَادِ

ثمَّ ينْظُرُ « ابنُ يقْظَانَ » إلَى الْأجسامِ الَّتِى لا تُحِسُّ وَلا تتغذَّى وَلا تنمو، وَيُطِيلُ تَأمُّلَهُ فى تلكَ الْأَجْسامِ — مثلَ الْحِجارةِ، وَالترابِ، وَالْماءِ، وَالْهوَاءِ، وَاللَّهَبِ — فيرَى أنهَا أجْسامٌ مُقَدَّرٌ لهَا طُولٌ وَعَرْضٌ وَعُمْقٌ، وَأنهَا لا تختلفُ إلاَّ أنَّ بعْضَهاَ ذُو لَوْنٍ، وَبعضَهاَ لاَ لَوْنَ لَهُ، وَبعْضَهاَ حارٌّ، وَبعْضَهاَ بَارِدٌ، وَما إلى ذلكَ مِنْ وُجُوهِ الاختلافِ.

وَكانَ يرَى أنَّ الحَارَّ مِنهاَ: يَصيرُ بَارداً، والْبَارِدَ: يَصيرُ حَارًّا، وَكانَ يرَى الْماءَ: يَصِيرُ بُخَاراً، وَالْبُخَارَ: يَصِيرُ ماءً، وَالْاشْيَاءَ الْمُحْترِقةَ: تَصِيرُ جَمْراً وَرَماداً وَلَهِيباً وَدُخَاناً، وَالدُّخَانَ إذا لاَقَى فى صُعُودِهِ حَجَراً: انْعَقَدَ فِيهِ، وَصَارَ بِمنزِلَةِ سَائِرِ الْأشْياءِ الْأرضِيَّةِ، فيَظْهرُ لَهُ بهذَا التَأمُّلِ أنَّ جَمِيعَهَا شَيءٌ وَاحدٌ فى الحَقِيقَةِ.

وَعَرَفَ أنهاَ — عَلَى كَثْرةِ أشْكالِهاَ، وَتَعدُّدِ صِفَاتِهاَ — تَلتقى فى أَوْصافٍ عَامَّةٍ؛ وَذلكَ كما يلتقى الحيوانُ والنَّباتُ، عَلَى ما لَحِقَهما منَ الْكَثْرَة، وَالتَّنَوُّعِ، وَالاخْتلافِ.

١٢ — خَصَائِصُ عَامَّةٌ

وَبَقِىَ «ابنُ يقظانَ» — بِحُكْمِ هذهِ الْحَالَةِ — مُدَّةً، ثمَّ إنهُ تأمَّلَ جميعَ الأجْسامِ — حَيَّهاَ وَجَمَادَهَا — فرَأَى أنَّ كلَّ وَاحدٍ منها لا يَخْلُو مِنْ

أحدِ أمرَيْنِ ، إمَّا أن يَتحرّكَ جهةَ العُلوّ ، مثلَ : الدُّخانِ ، واللّهبِ ، والهواءِ ، إذا حَصَلَ تحتَ الماءِ . وَإمَّا أنْ يَتحرّكَ إلى الجهةِ المُضادّةِ لتلكَ الجهةِ ، وَهىَ جهةِ السُّفْلِ : مثلَ الماءِ ، وَأجزاءِ الأرْضِ ، وَأجزاءِ الحَيَوانِ وَالنبَاتِ ، وَرَأى أنَّ كلَّ جسمٍ — من هذهِ الأجسامِ — لَنْ يَعْرَى عنْ هاتيْنِ الحركتيْنِ ، وَأنهُ لا يَسْكُنُ إلاَّ إذا منعهُ مَانعٌ يَعُوقهُ عَنْ طَريقهِ ، مثلُ الحَجَرِ النَّازلِ يُصَادِفُ وجْهَ الأرضِ صَلْباً ، فلا يمكنهُ أنْ يَخْتَرِقَهُ ، ولو أمكنهُ ذلكَ لما انْثنى عنْ حركَتِهِ ، فِيما يظهرُ .

وَلذلكَ ، إذَا دَفعتَهُ : وَجَدْتَه يَتحامَلُ عليكَ مائلاً إلى جهةِ السُّفْلِ ، طالباً لِلنُّزولِ ؛ وكذلكَ الدُّخانُ — فى صُعودهِ — لا يَنْثَنى إلاَّ أنْ تُصادِفَهُ قُبّةٌ صَلبةٌ تحبِسُهُ ، فحينئذٍ ينعطِفُ يَميناً وشمالاً ، ثم إذا تخلّصَ من تلكَ القُبّةِ : خَرَقَ الهواءَ صاعِداً ، لأنَّ الهواءَ لا يُمكنهُ أن يحْبِسَهُ .

*
* *

وكان يَرَى « ابنُ يقظَانَ » أنَّ الهواءَ — إذا مُلِئَ بهِ زِقٌّ مِنَ الجِلْدِ ، وَرُبِطَ ، ثم غُوِّصَ تحتَ الماءِ : طَلَبَ الصُّعودَ ، وتحامَلَ عَلَى مَنْ يُمْسِكُه ، تحتَ الماءِ ؛ ولا يَزالُ يَفعلُ ذلكَ ، حتى يُوَافِىَ سَطْحَ الماءِ ، ويُشْرِفَ على موضِعِ الهواءِ ؛ ومتى تَمَّ خرُوجهُ من تحتِ الماءِ ، فإنهُ يَسكُنُ — حِينئذٍ — وَيزولُ عَنه ذلكَ التّحامُلُ والمَيلُ إلى جهةِ العُلوّ الذى كان يوجدُ منه ، قبلَ ذلكَ .

١٣ — خَصَائِصُ المَـــاءِ

وَأَدَّى ذَلِكَ بـ « ابنِ يَقظانَ » إلى الماءِ ، فماذا رَأَى ؟

(١) رَأَى أنهُ إذا خُلِّيَ وما تَقْتَضِيهِ صُورتهُ، ظهرَ منهُ بَرْدٌ مَحْسُوسٌ، وطَلَبَ النُّزولَ إلى أسفلَ .

(٢) فإذا سَخُنَ الماءُ - إمَّا بالنَّارِ ، وَإمَّا بحرارةِ الشَّمْسِ - زَالَ عنهُ البرْدُ أوَّلاً، وظَلَّ بَاقياً فيهِ طلبُ النُّزُولِ إلى أَسْفَلَ .

(٣) فإذا اشْتَدَّ تسْخِينُهُ ، زَالَ عنهُ طَلَبُ النُّزُولِ إلى أسفلَ ، وَصَارَ يَطْلُبُ الصُّعُودَ إلى فوْقُ .

وثَمَّـةَ تزولُ عنهُ البرودةُ ، وطلبُ النزولِ إلى أسفلَ ، وهما الوَصْفَانِ اللذان امتازَ بِهِمَا الماءُ .

*
* *

وَعَجِبَ « ابنُ يقظانَ » مِمَّا وصلَ إليهِ من النتائجِ ، التى هَدَاهُ إليْهَا تَأَمُّلُهُ وَمُلاحَظَتُهُ ، فقد رأى — حينئذٍ — أنَّ الماءَ ، بَعْدَ أنِ اتَّخَذَ لهُ صُورةً جديدةً أُخرى ، لَمْ تكُنْ له قبلَ التَّسْخِينِ : صَدَرَ عنهُ بهَا أفعالٌ جديدةٌ أُخرى ، لم تكُنْ تَصْدُرُ عنهُ وَهوَ بِصُورتهِ الأولى ، فأصبحَ — بَعْدَ السُّخُونةِ — يَطْلُبُ الصُّعُودَ ، وقد كانَ فى حالِ البُرُودَةِ يَطْلُبُ النُّزُولَ .

١٤ – مَصْدَرُ الوُجودِ

فَعلِمَ « ابنُ يقظانَ » – حِينئذٍ – أنَّ كُلَّ حادثٍ : لاَ بُدَّ له من محدِثٍ ، فارْتَسَمَ فِي نفسِهِ – بهذا الاِعْتبارِ – فاعلُ الصُّوَرِ .

ثم إنَّهُ تتبَّعَ الصُّورَ التى كانَ قَدْ عَلِمَهَا قبلَ ذلكَ ، صُورةً صُورةً ، فرأى أنها كلَّها حادِثةٌ ، وأَنها لا بُدَّ لها من فاعِلٍ ، ثمَّ إنه نَظَرَ إلى ذوَاتِ الصُّوَرِ ، فلمْ يرَ إلاَّ أنها أجسامٌ مستعِدَّةٌ لأَنْ تَصْدُرَ عنها الأفعالُ ، مثلُ الماءِ فإنهُ إذا أفرطَ عليه التَّسْخينُ : استَعدَّ لِلحرَكةِ إلى فوقُ .

فَصُلُوحُ الجسمِ لبعضِ الحركاتِ دُونَ بعضٍ ، هو استِعدادُه الخاصُّ لقبولها .

ولاحَ لـ « ابنِ يقظانَ » مثلُ ذلكَ فى جميعِ الصُّور ، فَتَبَيَّنَ له أنَّ الأَفعالَ الصَّادرةَ عنها : لَيستْ فى الحقيقةِ لها ، وَإنما هىَ لفاعلٍ أَكْسَبَهَا الأَفعالَ المنْسُوبَةَ إليهَا .

وَهَكَذَا اهْتَدَى بذَكائِهِ ، وَحُسْنِ التفاتهِ ، وَدقَّةِ ملاحظتهِ ، إلى الإيمَانِ باللهِ خَالِقِ الْخَلْقِ ، وَمصْدرِ الوجودِ .

الفصل الخامس

١ – بَعْدَ الْخمسين

وَما زالَ « أبْنُ يَقْظَانَ » يُنعِمُ النظرَ ، ويُعمِنُ الفكرَ ، ويُطيلُ التأمُّلَ ، حتى بلغَ مَرتَبَةَ الفلاسِفةِ ، وَلم يبلُغْ حالتَهُ تلكَ ، حتى أنافَ عَلَى الخمسينَ ، وحينئذٍ انتقلَتْ حياتُهُ مِنَ العُزْلةِ إلى الاتِّصالِ ، وأُتاحَ لهُ حُسنُ الحظِّ مُصاحبَةَ عالمٍ ، تقِيّ ، وَرِعٍ ، كريمِ النفسِ ، نبيلِ الْخُلقِ ؛ فكانَ لهُ فى حياةِ « أبْنِ يَقظانَ » أكبرُ الأثرِ ، كما تَرَى فيما يَلِى مِنْ حوادثِ هذهِ القصةِ المعْجِبَةِ :

٢ – الصَّديقانِ

ذكرُوا : أنَّ جزيرةً قريبةً مِنَ الجزيرةِ التى نشأَ فيهَا «حَيُّ بْنُ يقظانَ» كانَ أهلُهَا يعبُدُونَ اللهَ — سبحانَهُ — ويطيعونه ، وقدْ ذَاعتْ فى تلكَ الجزيرةِ تعاليمُ الدِّينِ الصَّحيحةِ ، وَآمنَ سُكَّانها بمَا جاءَ بهِ الأنبياءُ والرُّسُلُ ، صلوَاتُ اللهِ عليهمْ .

فمَا زالَ الدينُ ينتشِرُ بتلكَ الجزيرةِ ، وتقْوَى أواصِرُهُ ، حتى قَامَ به مَلِكُهَا ، وحملَ الناسَ عَلَى الْتِزَامِهِ .

وكانَ قَدْ نشأَ بتلكَ الجزيرةِ فتَيَانِ منْ أَهْلِ الفضْلِ والرَّغبةِ فى الخيرِ، يُسَمَّى أحدُهما: «أسالُ» وَالآخرُ: «سَلامَانُ». فتَلقَّيا ذلكَ الدِّينَ وَقبِلاهُ أَحْسَنَ قبُولٍ، وَأَخَذَا نفْسَيْهِمَا بالْتِزَامِ جميعِ شرائعهِ، والمواظبةِ عَلَى تنفيذِ أوامرِهِ، وَالانتهاءِ بنواهيهِ وَزَوَاجِرِهِ، وَيتفهَّمَانِ دقائقهُ بعنايةٍ نَادِرَةٍ.

فأمَّا «أسالُ» فكان أشدَّ غوْصاً على الْباطنِ وأعمقَ، وأكثرَ فهماً لِأسْرَارِ الدينِ وَدقائِقِهِ الخفيةِ.

وَأمَّا «سَلامانُ» صَاحِبُهُ، فكانَ أكثرَ احتِفَاظاً بظاهرِ أَلْفَاظِ الدينِ، وأشدَّ بُعْدًا عنِ التعمُّقِ فى فَهمِ أَسْرَارِهِ؛ وكان لَا يُطِيلُ الْفِكْرَ وَالتأمُّلَ.

وكِلاهما مُجِدٌّ فِى الْعِبادةِ، مخلِصٌ لدينِهِ، دقيقٌ فى محاسَبةِ نفْسِهِ، ومجاهدةِ أهوائِهَا، وكان «أسالُ» يُؤْثِرُ العُزْلَةَ، وَيَميلُ إلى البعْدِ عنِ الناسِ، وَيَرَى أنَّ فى ذلك الفوْزَ والنَّجَاةَ.

ولكن «سَلامانَ» كانَ يَرَى فى ذلكَ رَأياً آخرَ، فهو يُؤْثِرُ الْمُعاشَرَةَ وَمُلاَزَمَةَ الجماعةِ، ويَرَى — فى ذلكَ — تمامَ سَعادتِهِ، لِأنهُ يُتيحُ لَهُ الفُرصةَ فى إرشادِ جَمْهَرَتِهِمْ إلى طريقِ الخيرِ، وتحْذِيرِهم عواقِبَ الشرِّ، وإنَارَةِ سبيلِ الهُدَى، وإخْرَاجهم منَ الغىِّ والضَّلالِ.

أما «أسالُ» فقد أخذ نفسَهُ بِالعُزلةِ، لِمَا كانَ فى طِبَاعِهِ — منْ

دوامِ الفِكرَةِ ، وَمُلاَزَمَةِ العِبرَةِ ، والغَوْصِ عَلَى المعانِى ، وأكثرُ ما كان يَتَأَتَّى لهُ أَمَلُهُ منْ ذلكَ : بالانْفِرَادِ .

* * *

وتَملَّقَ « سَلاَمَانَ » بِملاَزَمةِ الجماعَةِ ، وأخذ نفسَهُ بهذا المذهبِ ، لِمَا كان فى طِبَاعِهِ منَ البُعدِ عن التَّعَمُّقِ ، والانصرافِ إلى التأَمُّلِ ، فكانَتْ مُلاَزَمَةُ الجماعَةِ عِندهُ مما يَدْرَأُ الْوَسْوَاسَ ، ويُزِيلُ عنهُ الظُّنُونَ المعترِضَةِ ، ويُعيذُهُ منْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ .

٣ — سَبَبُ الفُرْقةِ

وكان اختلافُ « أسالَ » و « سَلاَمَانَ » فى هذا الرَّأْيِ : سببَ افتِرَاقِهِمَا ، ولمَّا سَمِعَ « أسالُ » عن تلك الجزيرةِ التى ذَكَرْنَا أَنَّ « حَيَّ بْنَ يَقظَانَ » قَدْ حلَّ بهَا ، وعرف ما فيها منَ الخِصْبِ والهواءِ المعْتَدِلِ ، ورأى أنَّ الانفِرَادَ بهَا يتأَتَّى لِمُلْتَمِسِهِ ، فأَجمعَ أَمْرَهُ أَنْ يرتحلَ إليهَا ، وَيَعتزِلَ الناسَ بهَا بقيَّةَ عمرِهِ .

٤ — مَقْدَمُ أسَالَ

فجمع «أسالُ» ما كانَ لهُ منَ المالِ ، وَاكترَى ببعضهِ سَفِينَةً تَحْمِلُهُ إلى تلكَ الجزيرةِ ، وفرَّقَ ما بقِيَ منْ مالهِ على المساكينِ ، وَوَدَّعَ صاحبَهُ « سلامانَ » وَركبَ مَتْنَ البحرِ ، فحملَهُ الملاَّحُونَ إلى تلكَ الجزيرةِ وَوَضعوهُ بساحِلِهَا ، وانفصلوا عنهُ .



٥ – عَيْشُ النُّسَّاكِ

وَبقِيَ «أسالُ» بتلكَ الجزيرةِ يعبُدُ اللهَ – عزَّ وجلَّ – وَيُعظِّمُهُ، وَيُقدِّسُهُ، وَيفكرُ فى أسمائهِ الْحسنَى وَصِفاتهِ العُليا، فلاَ ينقطعُ خاطرُهُ، وَلا تتكدَّرُ فِكرَتُهُ.

وإذا احتاجَ إلى الغِذاء، تناوَلَ من ثمراتِ تلك الجزيرةِ وصيدِها: مَا يَسُدُّ به جَوْعَتَهُ، وأقَامَ – على تلك الحالِ – مدَّةً، وهو فى أتمِّ غِبطةٍ، وأعظمِ

أنسٍ، بعبادَةِ ربِّهِ، وَمُناجاةِ خالِقِهِ، وكان - كلَّ يومٍ - يشاهدُ من ألطافه، ومزايا تُحفَهِ، وتيسيرِهِ عليه في مطالبِهِ وغِذائِهِ: مَا يُثبِّتُ يقينَهُ، ويُقِرُّ عينَهُ.

وكان «حيُّ بنُ يقظانَ» — في تلك المدةِ — شديدَ الاستغراقِ في أفكارِهِ الفلسفيَّةِ، وتأمُّلاتِهِ العميقةِ، فكان لا يبرحُ عن مغارتِهِ إلَّا مرةً في الاسبوعِ، لتناوُلِ ما سَنَحَ منَ الغذاءِ، فلذلك لمْ يعثرْ عليه «أسالُ» بأوَّلِ وهلَةٍ، بل كان يُطوِّفُ بأكنافِ تلك الجزيرةِ، ويَسيحُ في أرْجائها، فلا يرى إنْسِيًّا، وَلا يشاهدُ أثراً، فيزيدُ بذلكَ أُنْسُهُ، وَتتبسَّطُ نفسُهُ، لفرْطِ غرامِهِ، بالْعُزْلَةِ وَإيثارِهِ للانفرادِ، وَتناهيهِ في طلَبِ البُعدِ عنِ الناسِ.

٦ — لِقَاءٌ فُجَائِيٌّ

وَاتَّفَقَ — في بَعْضِ تلكَ الأَوقَاتِ — أَنْ خرَجَ «حَيُّ بنُ يقظانَ» لالتماسِ غِذَائهِ و «أسالُ» قد أَلَمَّ بتلكَ الجِهةِ، فوقعَ بصرُ كلٍّ وَاحدٍ منهما عَلَى الآخرِ.

فأمَّا «أسالُ» فلم يَرْضَ إلا أن يكونَ منَ الْعُبَّادِ الْمُنْقَطِعِينَ، وَصَلَ إِلى تلكَ الْجزيرَةِ لِطَلَبِ العُزْلَةِ عنِ الناسِ، فَخَشِيَ — إن هوَ تعرَّضَ لابنِ يقْظَانَ، وتعرَّفَ بهِ — أنْ يكونَ ذلك سبباً لِفسَادِ حالِهِ، وَعائقاً بينهُ وبين أمَلِهِ.

وَأمَّا «حَيُّ بنُ يَقظانَ»: فلَمْ يَدْرِ: مَنْ هو «أسَالُ»؟ لأنه لم يرَهُ عَلَى صُورةِ شيءٍ من الحيواناتِ التي كانَ قد عاينَها قبلَ ذلكَ.

٧ – فِرَارُ « أسالَ »

وَكَانَ على « أسالَ » ثياب من شعَرٍ وصُوفٍ، فَظَنَّ «ابنُ يقظانَ» أنَّهَا لباسٌ طَبيعيٌّ أنْبَتَهُ جِسْمُهُ ، فوقَفَ يتعجَّبُ منه مليًّا ، وَوَلَّى «أسالُ» – فَارًّا منهُ – خِيفةَ أن يَشْغَلَهُ عنْ حالهِ .



فَاقْتَفَى « ابنُ يَقظانَ » أثرَه – لما كانَ فى طِبَاعهِ من البَحثِ عن حقائقِ الأشياءِ – فلمَّا رآهُ يَشْتدُّ فى الهرَبِ : تَباطأَ «ابنُ يَقظانَ» وَخنسَ عنه ، وَتوارَى له ، حتى ظنَّ « أسالُ » أن صاحبَهُ الذى يَقتفيه : قدِ انْصرفَ عنهُ ، وتباَعدَ من تلكَ الجهةِ .

*

*

٨ — وَرَعُ « أسَالَ »

فَشَرَعَ «أسَالُ» في الصَّلَاةِ، والْقِرَاءةِ، والدُّعَاء، وَالْبُكَاء، وَالتَّضَرُّعِ، حتَّى شَغَلَهُ ذلكَ عن كلِّ شيء، فجعلَ « حيُّ بْنُ يقظانَ » يَتقَرَّبُ منهُ قَليلًا — و « أسَالُ » لا يشعرُ بهِ — حتى دَنَا منهُ بحَيْثُ يَسْمعُ قراءتهُ، وَتَسْبِيحَهُ، وَبُكاءهُ؛ وَيُشَاهِدُ خُضُوعَهُ. فَسَمِعَ صوتاً حَسَناً، وَحُرُوفاً مُنَظَّمةً، لَمْ يَعْهَدْ مثلَها منْ أصنَافِ الْحَيَوَانِ، وَنَظَرَ إلَى



أشْكَالِ هَذَا الْحَيِّ الْغرِيبِ وَتَخْطِيطِهِ، فَرَآهُ عَلَى صُورَتِهِ، وَتَبيَّنَ لَهُ أَنَّ الثِّيَابَ الَّتِي عَلَيْهِ لَيْسَتْ جِلْداً طَبيعيًّا، وَإِنَّمَا هِيَ لِبَاسٌ مُتَّخَذٌ مِثْلُ لِبَاسِهِ هُوَ.

وَلَمَّا رَأَى بُكَاءَهُ، وَحُسْنَ خُشُوعِهِ، وَتَضَرُّعَهُ، لَمْ يَشُكَّ فِي أَنَّهُ مِنَ الذَّوَاتِ الْعَارِفَةِ بِالْحَقِّ؛ فَتَشَوَّقَ إِلَيْهِ، وَأَرَادَ أَنْ يَرَى مَا عِنْدَهُ، وَمَا الَّذِي أَوْجَبَ بُكَاءَهُ وَتَضَرُّعَهُ؟

٩ — مُطَارَدَةٌ

فَزَادَ «حَيُّ بْنُ يَقْظَانَ» فِي الدُّنُوِّ، حَتَّى أَحَسَّ بِهِ «أَسَالُ» فَاشْتَدَّ فِي الْعَدْوِ، وَاشْتَدَّ «حَيُّ بْنُ يَقْظَانَ» فِي أَثَرِهِ، حَتَّى الْتَحَقَ بِهِ، لِمَا كَانَ أَعْطَاهُ اللهُ مِنَ الْقُوَّةِ، وَالْقُدْرَةِ عَلَى السَّبْقِ.

فَالْتَزَمَهُ، وَقَبَضَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُمَكِّنْهُ مِنَ الْبَرَاحِ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ «أَسَالُ» وَهُوَ مُكْتَسٍ بِجُلُودِ الْحَيَوَانَاتِ ذَوَاتِ الْأَوْبَارِ، وَشَعَرُهُ قَدْ طَالَ حَتَّى جَلَّلَ كَثِيراً مِنْهُ. وَرَأَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الْعَدْوِ، وَقُوَّةِ الْبَطْشِ فَرِقَ مِنْهُ فَرَقاً شَدِيداً، وَجَعَلَ يَسْتَعْطِفُهُ، وَيَرْغَبُ إِلَيْهِ بِكَلَامٍ لَا يَفْهَمُهُ «حَيُّ بْنُ يَقْظَانَ» وَلَا يَدْرِي: مَا هُوَ؟ غَيْرَ أَنَّهُ يُمَيِّزُ فِيهِ شَمَائِلَ الْجَزَعِ، فَكَانَ يُؤْنِسُهُ بِأَصْوَاتٍ كَانَ قَدْ تَعَلَّمَهَا مِنْ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ، وَيُرَبِّتُ عَلَى كَتِفِهِ، وَيُمِرُّ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَيَمْسَحُ أَعْطَافَهُ، وَيَتَمَلَّقُ إِلَيْهِ، وَيُظْهِرُ الْبِشْرَ وَالْفَرَحَ بِهِ، حَتَّى سَكَنَ جَأْشُ «أَسَالَ» وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ بِهِ سُوءاً.

١٠ — دَهْشَةُ الْغَرِيبَيْنِ

وكَانَ « أَسَالُ » — لِمَحَبَّتِهِ فى عِلْمِ التَّأْوِيلِ — قَدْ تَعَلَّمَ قَدِيمًا أَكْثَرَ الأَلْسُنِ، ومَهَرَ فِيهَا، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ « حَيَّ بْنَ يَقْظَانَ » ويُسَائِلُهُ عَنْ شَأْنِهِ بِكُلِّ لِسَانٍ يَعْلَمُهُ، ويُعَالِجُ إِفْهَامَهُ فَلاَ يَسْتَطِيعُ. وكَانَ « حَيُّ بْنُ يَقْظَانَ » — فى ذَلِكَ كُلِّهِ — يَتَعَجَّبُ مِمَّا يَسْمَعُ، ولاَ يَدْرِى: مَا هُوَ؟ غَيْرَ أَنَّهُ يُظْهِرُ لَهُ الْبِشْرَ والْقَبُولَ، فَاسْتَغْرَبَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمَا أَمْرَ صَاحِبِهِ.

١١ — طَعَـــامُ « أَسَالَ »

وَكَانَ عِنْدَ « أَسَالَ » بَقِيَّةٌ مِنْ زادٍ، كانَ قَدِ اسْتَصْحَبَهُ مِنَ الْجَزِيرةِ الْمَعْمُورَةِ، فَقَرَّبَهُ إلى « حَيِّ بنِ يَقْظَانَ » فلَمْ يَدْرِ: ما هُوَ؟ لأَنهُ لم يَكُنْ شاهَدَهُ قَبلَ ذلكَ، فأَكَلَ مِنهُ « أَسَالُ » وَأشارَ إلى صاحِبهِ ليأْكُلَ، فَتفكَّرَ « حَيُّ بنُ يَقْظَانَ » فى ذلكَ، وَلم يَكُنْ يَدْرِى أَصْلَ ذلكَ الشَّيْءِ الَّذى قَدَّمَهُ لهُ « أَسَالُ » وَلم يعرِفْ: ما هُوَ؟ وَهلْ يَجوزُ لهُ تنَاوُلُهُ، أَمْ لا؟ فَامْتَنعَ — بَادِئَ الأَمرِ — عَنِ الأَكلِ، وَلم يَزَلْ « أَسَالُ » يُرَغِّبُ إليهِ وَيَستَعْطِفهُ.

وَقَدْ كانَ « حَيُّ بنُ يَقْظَانَ » أُولِعَ بأَسالَ، فَخَشِيَ — إِنْ دامَ عَلَى امْتِناعِهِ — أنْ يُوحِشَهُ؛ فأَقْدمَ عَلَى ذلكَ الزَّادِ، وَأَكَلَ مِنهُ، فلمَّا ذاقَهُ وَاستَطابَهُ، بَدَا له سُوءُ ما صَنَعَ مِنْ نَقْضِ عُهودِهِ، وَخَشِيَ أَنْ يُصيبَهُ

سُوءٍ ، بَعْدَ أَنْ أَكَلَ مِنْ ذلكَ الطَّعَامِ الَّذى لم يَأْلَفْهُ مِنْ قَبلُ ، وَنَدِمَ عَلَى ما فَعلَهُ ، وَأَرادَ الانفِصَالَ عَنْ « أَسَالَ » وَالإِقبَالَ عَلَى شأنهِ مِنْ طَلَبِ الرُّجوعِ إلى مُقَامِهِ الْكرِيمِ ، وَلَـكِنَّهُ كانَ شَديدَ الرَّغبَةِ فى تَعرُّفِ حَقيقةِ هذا الغريبِ ، فتَرَيَّثَ فى أمره ، وَرأى أنْ يُقِيمَ مَعَ « أَسَالَ » وَقتاً قصيراً ، حَتَّى يَقِفَ عَلَى حَقيقَةِ شَأنهِ ، وَيتعرَّفَ جَلِيَّةَ أمرِهِ ، فإذا تَمَّ لهُ ذلكَ عادَ إلى طَرِيقتهِ الأُولَى ، وَانْصرَفَ إلى تأَمُّلاتهِ وَتفكيرِه دُونَ أنْ يَشْغَلَهُ شَاغِلٌ ، وَثَمَّةَ رأى حاجَتَهُ إلى مُصَاحَبَةِ « أَسَالَ » ، فَقرَّرَ — فى نَفسهِ — مُلازَمَتَهُ ، حتى يُدْرِكَ طَلِبتَهُ .

١٢ — مُعَلِّمُ « ابنِ يَقْظَانَ »

وَلمَّا رأى « أَسَالُ » أيْضاً أنَّ صَاحِبَهُ « ابنَ يقظَانَ » لاَ يَتَـكلَّمُ ، أَمِنَ مِنْ غَوائِلِهِ عَلَى دِينهِ ، وَرجَا أنْ يُعلِّمَهُ الْـكلامَ والْعِلْمَ والدِّينَ ، فَيكونَ لهُ بذلكَ أعْظَمُ أجْرٍ وَزُلْفَى عِندَ اللهِ . فَشرَعَ « أَسَالُ » فى تَعليمِ صَاحِبِهِ الْـكلامَ أوَّلاً ، بِأَنْ كانَ يُشيرُ له إلى أعْيَانِ المَوْجوداتِ ، وَيَنطِقُ بأَسْمائِها ، وَيُـكَرِّرُ ذلكَ عليه ، وَيَحمِلُهُ عَلَى النُّطْقِ ، فينَطِقُ بها مُقْتَرِناً بالإِشارَةِ ، حتى عَلَّمَهُ الأَسْماءَ كُلَّها .

وَلما تَمَّ لهُ ذلكَ ، شرَعَ يُدَرِّجُه قَليلاً قَليلاً ، حتى تَـكلَّمَ « ابنُ يَقظَانَ » فى أقْرَبِ مُدَّةٍ ، فَجعلَ «أَسَالُ» يَسأَلُ صَاحِبَهُ عَنْ شأنهِ ، وَمِنْ أيْنَ صَارَ إلى تِلكَ الْجَزِيرَةِ ؟ فأَعْلَمَهُ «حَيُّ بنُ يَقظَانَ» أنهُ لا يَدْرِى لِنفسهِ ابتِداءً ،

وَلا أبًا، وَلا أُمًّا؛ أكثرَ مِنَ الظَّبْيَةِ التى رَبَّتْهُ. وَوَصفَ لهُ شأنَهُ كُلَّهُ وَكَيفَ تَرَقى بالْمَعْرِفةِ، حتى وَصلَ إلى تِلكَ الْمرَتبَةِ العَالِيةِ، مِنَ البَحْثِ وَالإدْراكِ؟

فَلمَّا سَمِعَ «أسَالُ» مِنهُ وَصْفَ تِلكَ الحقَائق: رأى مِنْ حُسنِ فهْمهِ ما أدْهَشَهُ، وَمَلأَ نَفسَهُ إعجَابًا بهِ، وَرفعَ مَكانَتَهُ فى عَيْنَيهِ.

٭
٭ ٭

وَازْدَادَ إيمَانُ «أسَالَ»، وَقوىَ يَقينُهُ، وَانْفَتحَ بَصرُ قَلبهِ، وانْقدَحتْ نَارُ خاطِره، وَلم يَبْقَ علَيهِ مُشْكلٌ فى الدِّينِ إلاَّ تبيَّنَ لهُ، وَلا مُغْلَقٌ فى الشَّرِيعةِ إلاَّ انْفتَحَ، وَلا غامِضٌ إلاَّ اتَّضحَ؛ وَصارَ مِنْ أُولِى الألْبَابِ.

وَعِنْدَ ذلكَ نَظرَ إلى «حَىِّ بْنِ يَقظَانَ»، بِعَيْنِ التَّعظِيمِ والتَّوْقيرِ، وتَحقَّقَ عندَهُ أنهُ مِنْ أَوْلِياءِ اللهِ الصَّالِحينَ الَّذِينَ لاَ خَوْفٌ علَيهِم وَلاَ هُمْ يَحزَنُونَ. فَالْتزَمَ خِدْمَتهُ وَالاقْتداءَ بهِ، وَالأَخْذَ بِإشَارَتهِ، وأَصْبَحَ أَصْفَى أَصْفِيائهِ، وأَخْلَصَ خُلَصائهِ، مُنْذُ ذلكَ اليَوْمِ.

٭

الفصل السادس

١ — فَضْلُ الشَّرائع

وَظَلَّ « حَيُّ بنُ يقْظَانَ » يَسْتَفْصِحُهُ عَنْ أَمْرِهِ وَشأْنِه، فجعلَ « أسالُ » يَصِفُ لهُ شَأْنَ جَزِيرَتِهِ وَمَا فيهَا مِنَ الْعَالَمِ ، وكَيْفَ كانَتْ سِيَرُهم قَبْلَ وُصولِ الدِّينِ إليهمْ ، وكَيْفَ هِيَ الآنَ بَعْدَ أَنِ اهْتَدَوْا بِنُورِ الدِّينِ ، وَوَصفَ لهُ جميعَ ما وَرَدَ فى الشَّريعةِ مِنْ وَصْفِ الْعالَمِ الإِلٰهِيِّ ، والْجَنَّةِ والنَّارِ ، وَالْبَعْثِ والنُّشُورِ ، والْحِسَابِ والمِيزانِ والصِّراطِ .

فَفَهِمَ « حَيُّ بنُ يقظَانَ » ذلكَ كُلَّهُ ، وَلَمْ يَرَ فيه شَيْئاً عَلَى خِلَافِ مَا شَاهَدَهُ فى مُقَامِهِ الْكَرِيمِ ، فَعَلِمَ أَنَّ الَّذى جاءَ بذلك الدِّينِ القَيِّمِ نَبِيٌّ أَمِينٌ ، ذُو قُوَّةٍ — عِنْدَ ذِى العَرْشِ — مَكِينٌ ، وأَيْقَنَ أنهُ مُحِقٌّ فى وصْفِهِ ، صادِقٌ فى قَوْلِهِ ، وَأَنهُ رَسولٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ ، فآمَنَ بهِ وَصدَّقَهُ وشَهِدَ برِسالَتِهِ ، وأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ ، وأَصْبَحَ فى عِدادِ الصَّالِحِينَ الأخْيَارِ .

ثمَّ جَعلَ « ابنُ يَقظَانَ » يَسْأَلُ صاحبَهُ « أسالَ » عمَّا جاءَ به مِنَ الفَرَائِضِ ، ومَا فرَضَهُ عَلَى الناسِ مِنَ العِباداتِ ، فَوَصفَ لهُ صَاحِبُهُ « أسالُ » : الصَّلاةَ . والزَّكاةَ ، والصِّيَامَ ، والْحجَّ ، وما أَشْبَهَهَا ؛ وَشرَحَ له حِكْمَةَ هذهِ الفُرُوض والواجباتِ ، فَتَلقَّى ذلكَ والْتزمَهُ ، وأخذَ نَفسَهُ بِأَدائِهِ ، امْتِثالاً لِلأَمْرِ الَّذى صَحَّ عِنْدَهُ صِدْقُ قائِلِهِ .

٢ — آرَاءُ ابنِ يَقظَانَ

ولـكِنْ بَقِيَ فى نَفْسِ « ابنِ يَقْظَانَ » أَمْرٌ كانَ يَتعجَّبُ مِنهُ، ولاَ يَدْرِى وَجْهَ الْحِـكْمَةِ فيه ، وذلكَ أنهُ — فِيماَ فَهِمَهُ مِن « أَسالَ » — رأى النـاسَ يَسْتَبِيحُونَ لِأنفُسِهِمْ اقتِنَاءَ الأموالِ ، والتَّوَسُّعَ فى الْمآ كِلِ ، حتى تَفرَّغُوا لِلبـاطِلِ بالْبَاطِلِ ، وأَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ . وَكانَ رَأْيُهُ هُوَ أَنْ لا يَتنَاولَ أَحَدٌ شَيئًا إلاَّ ما يُقِيمُ بهِ الرَّمَقَ . وأمَّا الأمْوالُ فلمْ تكنْ عِنْدَهُ بِمَعنًى . وَكانَ يَرَى ما فى الشَّرعِ مِنَ الأحْـكامِ فى أمْرِ الأمْوالِ ، كالزَّكاةِ وتَشَعُّبِها ، والبُيوعِ ، والرِّبَا ، والحُدُودِ ، والْعُقُوبَاتِ ؛ فكانَ يَسْتَغْرِبُ ذلكَ كُلَّه ، وَيرَاهُ مَفْهوماً بالْبَداهَةِ . ويَقولُ : إنَّ النَّـاسَ لوْ فَهِمُوا الأمرَ عَلَى حَقيقتهِ ، لَأَعْرَضُو عَنْ أبَاطِيلِهِم ، وأقبَلُوا عَلَى الحقِّ ، وَزَهِدُوا فى المالِ ، ولم يَدَّخِرُوهُ ، ولمْ يَتـكالَبُوا عليه ، ولم يَحتَاجُوا إلى مَنْ يُرْشِدُهم إلى واجبِ إِخْرَاجِ الزَّكاةِ مِنْهُ . ولم يُقْدِمِ السَّارقونَ عَلَى سَرِقَتهِ ، فَتُقْطَعَ أيْدِيهِمْ

وكانَ الَّذى أوْقعَهُ فى ذلكَ ، ظَنُّهُ أنَّ النَّاسَ — كُلَّهُمْ — ذَوُو فِطْرَةٍ فَائِقَةٍ ، وأذْهانٍ ثَاقبةٍ ، ونُفُوسٍ حازمَةٍ ؛ ولم يكُنْ يَدْرِى ما هُمْ عليهِ مِنَ البَلاَدَةِ ، والنَّقْصِ ، وسوءِ الرَّأْىِ ، وَضَعْفِ العَزْمِ ؛ وأنهمْ كالأنعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبيلاً .

٣ — مُفَاوَضَةُ أسَالَ

فَلمَّا اشْتَدَّ إشْفَاقُ « ابْنِ يَقظَانَ » على النَّاسِ، وطَمِعَ أنْ تكونَ نجَاتُهم على يَدَيْهِ ، حَدَثَتْ له نِيَّةٌ في الوُصولِ إليهمْ ، وإيضَاحِ الحقِّ لَديهمْ وَتبْيِينِهِ ، ففَاوَضَ في ذلكَ صاحِبَهُ « أسالَ » وَسألهُ : هَلْ تُمَكِّنُه حِيلةٌ في الوُصولِ إلى تِلكَ الجَزِيرَةِ ، لِيُرْشِدَ الناسَ إلى طَرِيقِ النَّجَاةِ ، وَيهْدِيَهمْ إلى سَواءِ السَّبيلِ ؟ فأعْلَمَه « أسالُ » بِما سَوادُ النَّاسِ عليهِ ، مِنْ نَقْصِ الفِطْرَةِ ، والإعْراضِ عَنْ أمْرِ اللهِ . فلمْ يَتأتَّ له فَهْمُ ذلكَ ، وَبقِيَ في نَفسِهِ تَعلُّقٌ بِما كانَ قَدْ أمَّلَهُ .

٤ — على سَاحِلِ البحرِ

ثم طَمِعَ «أسالُ» أنْ يَهْدِيَ اللهُ على يَدِي «ابنِ يَقْظانَ» طائفةً مِنْ مَعَارِفهِ المُريدينَ، الَّذينَ كانوا أقربَ إلى الإخلاصِ مِنْ سِواهم، فَساعَدَهُ على رأيِهِ، وأقَرَّهُ على اقتراحهِ ، ودَعا اللهَ أنْ يُحَقِّقَ أمَلَهُ ، ويُظفِّرَهُ بِأُمْنِيَّتِهِ .

وَرأيَا أنْ يَلتزِمَا ساحلَ البحرِ ، ولاَ يُفَارِقَاهُ ليلاً ولا نَهاراً ، لَعلَّ اللهَ يُسَنِّي لهمَا عُبورَ البحرِ ، فالْتزَمَا ذلكَ ، وأبْتهَلا إلَى اللهِ — تعالى — بالدُّعاءِ أن يُهيِّئَ لهمَا مِنْ أمْرِهما رَشَداً .

٥ — فى المركَب

وكَانَ مِنْ أَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ : أَنَّ سَفِينَةً — فِي الْبَحْرِ — ضَلَّتْ مَسْلَـكَهاَ، وَدَفَعَتْهَا الرِّيَاحُ، وَتلاَطُمُ الأَمْواجِ، إلى سَاحِلِهاَ، فَلَمَّا قَرُبَتْ هَذِهِ السَّفِينَةُ مِنَ الْبَرِّ، رَأَى أَهْلُهَـا « أَسَالَ » و « ابْنَ يَقْظَانَ » عَلَى الشَّاطِئِ، فَدَنَوْا مِنْهما، فَكلَّمَهُمْ « أَسَالُ » وَسَأَلَهُمْ أَنْ يَحْمِلوهُمَا مَعَهمْ؛ فَأَجَابُوهُمَا إلى ذَلِكَ، وَأَدْخَلُوهُمَا السَّفِينَةَ، فَأَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ رِيحاً رُخَاءً، حَمَلَتِ السَّفِينَةَ — فِي أَقْرَبِ مُدَّةٍ — إِلَى الْجَزِيرَةِ الَّتِي قَصَدَاهَا.

٦ — سَوادُ الخاصَّـةِ

فَـنَزَلاَ بِهَا، وَدَخَلاَ مَدِينَتَهَا، وَاجْتَمَعَ أَصْحَابُ «أَسَالَ» بِهِ، فَعَرَّفَهُمْ شَأْنَ « حَيِّ بْنِ يَقْظَانَ »، فَاشْتَمَلُوا عَلَيْهِ اشْتِمالاً شَدِيداً، وَأَكْبَرُوا أَمْرَهُ، وَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، وَأَعْظَمُوهُ وَبَجَّلُوهُ، وَأَعْلَمَهُ « أَسَالُ » أَنَّ تِلْكَ الطَّائِفَةَ : هُمْ سَوَادُ الْخَاصَّةِ مِنْ عُقَلاَءِ الْجَزِيرَةِ، وَأَنَّهُمْ — لِذَلِكَ — أَقْرَبُ إِلى الْفَهْمِ وَالذَّكَاءِ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ، وَأَنَّهُ إِنْ عَجَزَ عَنْ تَعْلِيمِ هَؤُلاَءِ الْخَاصَّةِ الْعُقَلاَءِ، فَهُوَ عَنْ تَعْلِيمِ الْجُمْهُورِ أَعْجَزُ؛ وكَانَ رَأْسُ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ وَكَبِيرُهَا : « سَلاَمَانُ »، وَهُوَ صَاحِبُ « أَسَالَ » الَّذِي ذَكَرْنَاهُ آنِفاً، وكَانَ — كَمَا أَسْلَفْنَا — يَرَى مُلاَزَمَةَ الْجَمَاعَةِ، وَيَنْفِرُ مِنَ الْعُزْلَةِ.

٧ ـ السُّخْطُ بَعْدَ الرِّضَى

فَشَرَعَ «ابْنُ يَقْظَانَ» فِي تَعْلِيمِ جَمْهَرَةِ النَّاسِ وَإِرْشَادِهِمْ، وَبَثَّ أَسْرَارِ الْحِكْمَةِ فِيهِمْ، ثُمَّ تَرَقَّى بِهِمْ قَلِيلاً، وَشَرَعَ فِي نَشْرِ آرَائِهِ وَمَبَادِئِهِ الْجَدِيدَةِ بَيْنَهُمْ، فَاجْتَرَأَ عَلَى مُصَارَحَتِهِمْ بِالْحَقِّ، وَتَوَخَّى



إِرْشَادَهُمْ إِلَى الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ، وَهِدَايَتَهُمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَتَحْذِيرَهُمْ مِنْ تِلْكَ الْبِدَعِ الْمَمْقُوتَةِ الَّتِي أَلْصَقَهَا الْجُهَلاَءُ بِالدِّينِ، فَشَوَّهَتْ مِنْ جَمَالِهِ، وَبَدَّلَتْ مِنْ مَحَاسِنِهِ وَمَزَايَاهُ. وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَقْدَمَ عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى جَعَلُوا يَنْفَضُّونَ عَنْهُ، وَتَشْمَئِزُّ نُفُوسُهُمْ مِمَّا يَأْتِي

بِهِ، وَيَتَسَخَّطُونَ — فِي قُلُوبِهِمْ — وَإِنْ أَظْهَرُوا لَهُ الرِّضَى فِي وَجْهِهِ، إِكْرَامًا لِغُرْبَتِهِ فِيهِمْ، وَمُرَاعَاةً لِحَقِّ صَاحِبِهِمْ «أَسَالَ».

٨ — خَيْبَةُ ابْنِ يَقْظَانَ

عَلَى أَنَّ «حَيَّ بْنَ يَقْظَانَ» لَمْ يَدِبَّ الْيَأْسُ إِلَى قَلْبِهِ — بَادِئَ الأَمْرِ — وَمَا زَالَ يَتَلَطَّفُ لهم لَيْلاً وَنَهاراً، وَيُبَيِّنُ لَهُمُ الْحَقَّ سِرًّا وَجِهَاراً، فَلاَ يَزِيدُهُمْ ذَلِكَ إِلَّا نُفُوراً وَإِصْرَاراً، وَلاَ يَلْقَى مِنْهُم — عَلَى نَصِيحَتِهِ — إِلَّا عُتُوًّا واسْتِكْبَاراً، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُحِبِّينَ فِي الْخَيْرِ، رَاغِبِينَ فِي الْحَقِّ؛ إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا — لِنَقْصِ فِطْرَتِهِمْ، وَضِيقِ عَقْلِهِمْ، وَقِصَرِ نَظَرِهِمْ — لاَ يَطْلُبُونَ الْحَقَّ مِنْ طَرِيقِهِ، وَلاَ يَأْخُذُونَهُ بِجِهَةِ تَحْقِيقِهِ، وَلاَ يَلْتَمِسُونَهُ مِنْ بَابِهِ، وَلاَ يُرِيدُونَ مَعْرِفَتَهُ مِنْ طَرِيقِ أَرْبَابِهِ.

فَلَمَّا رَأَى «ابْنُ يَقْظَانَ» — مِنْ عِنَادِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ — مَا رَأَى، يَئِسَ مِنْ إِصْلاَحِهِمْ، وانْقَطَعَ رَجَاؤُهُ مِنْ صَلاَحِهِمْ، لِقِلَّةِ قَبُولِهِمْ.

٩ — ضَلاَلُ النَّاسِ

وَتَصَفَّحَ «ابْنُ يَقْظَانَ» — بَعْدَ ذَلِكَ — طَبَقَاتِ النَّاسِ، فَوَجَدَ مِنِ اخْتِلاَفِ آرَائِهِمْ، وتَعَدُّدِ مَذَاهِبِهِمْ، وَوَلُوعِهِمْ بِالْجَدَلِ الْعَقِيمِ، مَا زَهَّدَهُ فِي لِقَائِهِمْ، وَزَادَ يَأْسَهُ مِنْ هِدَايَتِهِمْ، إِذْ رَأَى أَنَّ كُلَّ

حِزْبٍ — بِمَا لَدَيهِمْ — فَرِحُونَ، وَرَأى مِنْ غَفْلَتِهِمْ عَنِ الْآخِرَةِ، وَتفَانِيهِمْ فِي جَمْعِ حُطَامِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ، مَا حَيَّرَهُ وَبَلْبَلَ خَاطِرَهُ، فَقَدْ أَلْهَاهُمُ التَّكَاثُرُ، حَتَّى زَارُوا الْمقَابِرَ، وَلَمْ تَنْجَعْ فِيهِمُ الْمَوْعِظَةُ الْحسَنَةُ، وَلَمْ تَعْمَلْ فِيهِمُ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ، وَلَمْ يَزْدَادُوا — بِالْجِدَالِ — إِلَّا إِصْرَاراً وَعِنَادًا، ولَمْ تَجِدِ الْحِكْمَةُ إِلَى قُلُوبِهِمْ سَبِيلاً، بَعْدَ أَنْ غَمَرَتْهُمُ الْجَهَالَةُ، وَرَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ؛ وَجعل اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَعَلَى سَمْعِهِمْ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ: غِشَاوَةً، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ.

١٠ — ظُلُماتُ الجهلِ

فَلمَّا رأى «ابنُ يَقظانَ» أنَّ سُرادِقَ العَذابِ قد أحاطَ بِهِمْ، وَظُلماتِ الْحُجُبِ قد تغَشَّتهمْ، وأنَّ جَميعَهم — إلاَّ الْيسيرَ — لا يَتمسَّكونَ مِنْ دِينِهمْ إلاّ بالدُّنيا، وقد نَبذوا أَحكامَهُ وسُنَنَهُ — على خِفَّتِها وَسُهولتِها — وَراءَ ظُهورِهِم، واشْترَوْا به ثَمَناً قليلاً، وأَلهاهُم — عَنْ ذِكرِ اللهِ تعالَى — بَيْعُهُمْ وَتِجارَتُهم، وَلم يَخافُوا يَوماً تَتقلَّبُ فيه القُلوبُ والأَبصارُ: بَانَ له وَتحقَّقَ — على الْقَطْعِ — أنَّ مُخاطَبَتهمْ لاَ غَناءَ فيها، وأَن تَقويمَ اعْوِجاجِهم لا يَتفقُ، وأنَّ حَظَّ أَكثرِ الْجمهورِ — مِنَ الانتفاعِ بالشريعةِ — إنما هو فى حَياتِهِم الدُّنيا، لِيَسْتقيمَ لهم مَعاشُهمْ، ولاَ يَتعَدَّى أَحدٌ مِنهم على سِواهُ، فيما اختَصَّ به.

١١ – طريق النجاة ، وطريقُ الهلاك

وَرأى « ابنُ يقظانَ » أنَّ الفائزِينَ بالسعادَةِ الأُخْرَوِيَّةِ أقَلُّ مِنَ القليلِ ، وأنه لاَ يَظْفَرُ بها إلاَّ الشَّاذُّ النادِرُ ، وهو مَنْ أرادَ حَرْثَ الآخِرةِ ، وَسَعى لها سَعْيَها .

وَأمَّا مَنْ طَغى ، وآثرَ الحياةَ الدنيا ، فإنَّ الْجحِيمَ هى المَأْوَى .

*
* *

وأىُّ تَعبٍ أدْهَى وأعظَمُ ، وشَقاوَةٍ أطمُّ وأعَمُّ وأكبَرُ ، مِمَّنْ إذا تَصَفَّحْتَ أعمالَهُ طولَ يَومهِ ، مِنْ وقت انْتبَاهِهِ من نومهِ ، إلى حِينِ رُجوعهِ إلى الكَرَى ، واسْتِسلامهِ لِلنَّوْمِ : لا تَرى لَهُ همًّا يَشْغَلُ بالَهُ ، ويُقْلِقُ خاطِرَهُ ، ويُؤَرِّقُ نومَهُ ؛ إلاَّ أعراضَ الحياةِ الزائلَةِ ، مِنْ مال يَجْمَعُهُ ، أوْ دُنيَا يُصيبُها ، أوْ لَذَّةٍ ينالُها ، أوْ كَيْدٍ يَتشَفَّى بهِ ، أوْ جاهٍ يُحرِزُهُ ، أوْ عَمَلٍ مِنْ أعمالِ الشَّرعِ يَتزَيَّنُ بهِ ، أوْ تقْوَى يَتظاهَرُ بها – رِئَاءَ النَّاسِ – وهى كلُّها ظُلماتٌ فى بَحرٍ لُجِّىٍّ ، بعضُها فَوْقَ بَعضٍ .

١٢ – خاتِمَةُ القِصَّةِ

فلَمَّا فَهِمَ « ابنُ يَقْظانَ » أحْوالَ النَّاسِ ، أدْرَكَ أنَّ أكْثرَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْحَيَوانِ غيرِ النَّاطِقِ ، وَأنَّ لِكلِّ عَمَلٍ رِجالاً ، وَأنَّ كلاًّ

مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ. سُنَّةَ اللهِ فى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ، وَلَنْ تَجِدَ — لِسُنَّةِ اللهِ — تَبْدِيلًا.

فانْصَرَفَ «ابْنُ يَقْظَانَ» إلى «سَلامانَ» وَأَصْحابِهِ، فاعْتَذَرَ لَهُمْ عَمَّا تَكَلَّمَ بِهِ مَعَهُمْ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ قَدْ رَأَى مِثْلَ رَأْيِهِمْ، واهْتَدَى بِمِثْلِ هَدْيِهِمْ، وَأَوْصاهُمْ بالْخَيْرِ والْبِرِّ، وَالاقْتِداءِ بالسَّلَفِ الصَّالِحِ.



ثُمَّ وَدَّعَهمُ «ابْنُ يَقْظَانَ» و «أَسالُ»، وانْفَصَلا عَنْهمْ، وَتَلَطَّفَا فى الْعَوْدِ إِلَى جَزِيرَتِهِمَا، حَتَّى يَسَّرَ اللهُ — عَزَّ وَجَلَّ — لَهُمَا العبورَ.

وَطَلَبَ « حَيُّ بْنُ يَقْظَانَ » مُقامَهُ الكَرِيمَ، عَلَى النَّحْوِ الذى طَلَبَهُ أَوَّلاً ، حتى عادَ إِلَيْهِ ، واقْتَدَى بِهِ « أَسالُ » حتى سَاوَاهُ أَوْ كادَ .

وَما زَالا يَعْبُدَانِ اللهَ فى تِلْكَ الْجَزِيرَةِ ، حتى أَتاهُما الْيَقِينُ .

وهكَذا عاشا عِيشَةَ النُّسَّاكِ الزَّاهِدِينَ ، وَماتا مِيتَةَ الأَبْرَارِ الْمُقَرَّبِينَ ، وكُتِبَتْ لَهُما السَّعَادَةُ ، فى الدُّنْيا والآخِرَةِ .

القصـــة الثـانية :

عنـــترة بن شـــداد

المقدمة

نشأة المؤلف

مؤلف هذه القصة الخالدة ، هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل الأندلسى، وهو ينتسب إلى قرطبة وأشبيلية ، ويدعى تارة بالقرطبي ، وتارة بالأشبيلى ، ويعزى إلى قبيلة قيس المشهورة .

وكانت ولادته فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ، وقد اشتغل بالطب فى غرناطة ، ثم أصبح ناموس حاكم هـذه المقاطعة ، وما لبث أن ذاع صيته فى الآفاق وعرف فضله بين أفذاذ معاصريه ، وأصبح علماً من الأعلام ، بعد أن اتصل بأبى يعقـوب عام ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) . وصار أصفى أصفيائه ، وأخلص سماره وندمائه .

وصف أبى يعقوب وثقافته

أما أبو يعقوب هذا ، فهو يوسف بن عبد المؤمن، وقد أسس أبوه دولة الموحدين ، ثم خلفه ولده أبو يعقوب على سبتة وطنجة ، واتخذ ابن الطفيل كاتم سره وأنيسه وطبيبه ، ولم يخالف له رأياً ، ولم يرد له مشورة .

وكان أبو يعقوب هذا مثال الوالى المثقف الناضج ، وقد اختار حاشيته وأصفياءه من أعيان المفكرين فى عصره :

قال المراكشى يصف أبا يعقوب :

« وكان أبيض تعلوه حمرة ، شديد سواد الشعر ، مستدير الوجه ، أفوه ، أعين ، إلى الطول أقرب ، فى صوته جهـارة ، رقيق حواشى اللسان ، حلو الألفاظ ، حسن الحديث، طيب المجالسة ، أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظهم بأيامها ومآثرها وجميع أخبارها فى الجاهلية والاسلام .

وصرف عنايته إلى ذلك — أيام كونه بأشبيلية والياً عليها فى حياة أبيه — ولقى رجلا من علماء اللغة والنحو والقرآن . »

وكان أبو يعقوب — كما يقـول المراكشى — « شديد الملوكية ، بعيد الهمة ، سخيا جواداً ، استغنى الناس فى أيامـه ، وكثرت فى أيديهم الأموال . هذا ، مع إيثار للعلم ، وتعطش إليه مفرط . »

قال : « وكان له مشاركة فى علم الأدب ، واتساع فى حفظ اللغة ، وتبحر فى علم النحو . ثم طمح به شرف نفسه وعلو همتـه إلى تعلم الفلسفة ، فأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموى . » إلى أن قال : « ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ، ويبحث عن العلماء — وخاصة أهل علم النظر — إلى أن اجتمع له ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب »

فضل ابن الطفيل

قال المراكشى

« وكان ممن صحبه من العلماء أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين ، كان متحققاً بجميع أجزاء الفلسفة ، قرأ على جماعة

من المتحققين بعلم الفلسفة . ورأيت لأبى بكر هذا تصانيف فى أنواع الفلسفة من الطبيعيات والألهيات وغير ذلك ، فمن رسائله الطبيعية رسالة سماها رسالة حى بن يقظان، غرضه فيها بيان مبدإ النوع الانسانى على المذهب الذى يراه ، وهى رسالة لطيفة الجرم كبيرة الفائدة فى ذلك الفن . ومن تصانيفه فى الالهيات رسالة فى النفس رأيتها بخطه رحمه الله . وكان قد صرف عنايته فى آخر عمره إلى العلم الالهى ونبذ ما سواه . وكان حريصاً على الجمع بين الحكمة والشريعة، معظماً لأمر النبوات ظاهراً وباطناً، هذا مع اتساع فى العلوم الاسلامية . »

« وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب : شديد الشغف به والحب له ، بلغنى أنه كان يقيم فى القصر عنده أياماً ، ليلا ونهاراً ، لا يظهر . وكان أبو بكر هذا أحد حسنات الدهر فى ذاته وأدواته . »

مثالان من شعره

وقد اختار المراكشى من شعر ابن الطفيل قوله فى الزهد :

يا باكياً فرقة الأحباب عن شحط
هلا بكيت فراق الروح للبدن
نور تردد فى طين إلى أجل
فانحاز علواً وخلى الطين للكفن
يا شد ما افترقا من بعد ما اعتنقا
أظنها هدنة كانت على دخن
إن لم يكن فى رضى الله اجتماعهما
فيا لها صفقة تمت على غبن

وقوله :

ما كل من شم نال رائحـة
للناس فى ذا تباين عجب
قوم لهم فكرة تجول بهم
بين المعانى ، أولئك النجب
وفرقة فى القشور قد وقفوا
وليس يدرون لب ما طلبوا
لا غاية تنجلى لناظرهم
منه ولا ينقضى لهم أرب
لا يتعدى امرؤ جبلتـه
قد قسمت –فى الطبيعة– الرتب

ابن الطفيل وابن رشد

وكان لابن الطفيل الفضل فى تقديم ابن رشد إلى السلطان أبى يعقوب ، وقد وصف ذلك المراكشى فقال : « ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبه عليهم ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم وهو الذى نبهه على ابن الوليد محمد احمد بن محمد ابن رشد ، فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم .

وكان أبو الوليد يقول غير مرة : « لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب وجدته هو وأبو بكر ابن طفيل ليس معهما غيرهما فأخذ أبو بكر يثنى علىَّ ويذكر بيتى وسلفى ويضم بفضله إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدرى ، فكان أول ما فاتحنى به أمير المؤمنين — بعد أن سألنى عن اسمى واسم أبى ونسبى — أن قال لى : ما رأيهم فى السماء — يعنى الفلاسفة — أقديمة هى أم حادثة ؟ فأدركنى

الحيـاء والخوف ، فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالى بعلم الفلسفة ، ولم أكن أدرى ما قرر معه ابن طفيل ، ففهم أمير المؤمنين منى الروع والحياء ، فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسئلة التى سألنى عنهـا ويذكر ما قاله ارسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم ، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها فى أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له ، ولم يزل يبسطنى حتى تكلمت ، فعرف ما عندى من ذلك، فلما انصرفت، أمر لى بمال وخلعةسنية ومركب . وأخبرنى تلميذه المتقـدم الذكر عنه قال : استدعانى أبو بكر بن طفيل يوماً فقال لى : سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبـارة ارسطوطاليس أو عبارة المترجمين عنه ، ويذكر غموض أغراضه ويقول : لو وقع لهذه الـكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً ، لقرب مأخذها على الناس ، فان كان فيك فضل قوة لذلك فافعل ، وإنى لأرجو أن تفى به ، لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعـة ، وما يمنعنى من ذلك إلا ما تعلمه من كبرة سنى واشتغالى بالخدمة ، وصرف عنايتى إلى ما هو أهم عندى منه . قال أبو الوليـد : فكان هذا الذى حملنى على تلخيص ما لخصته من كتب الحـكيم ارسطوطاليس » .

وقد رأيت لأبى الوليد هذا تلخيص كتب الحـكيم فى جزء واحد فى نحو مائة وخمسين ورقة ، ترجمه بكتاب الجوامع . لخص فيه كتاب الحـكيم المعروف بسمع الـكيان ، وكتاب السماء والعـالم ، ورسالة الـكون والفساد ، وكتاب الآثار العلوية ، وكتاب الحس والمحسوس . ثم لخصها بعـد ذلك وشرح أغراضها فى كتاب مبسوط فى أربعة أجزاء . وبالجملة لم يكن فى بنى عبد المؤمن — من تقدم منهم وتأخر — ملك بالحقيقة غير أبى يعقوب هذا . »

وفاة ابن طفيل

وهكذا قضى ابن طفيل حياة مباركة حافلة بالدرس والتأليف ، ولم يأل جهده فى تشجيع أعلام عصره وتقديمهم إلى السلطان ، وقد رأى القـارئ أثر ابن الطفيل فى تشجيع ابن رشد والأخـذ بناصره ، وقد دارت بينهما مراسلات نفيسة فى مراجعـة كتاب الـكليات الذى ألفه « ابن رشد » .

وقد جاء فى الجزء الثانى من كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (ص ٧٨) ما يلى :

« ولابن رشد مقالة أيضاً فى اتصال العقل بالانسان : مراجعات ومباحث بينـه وبين أبى بكر بن طفيل . »

ومات ابن طفيـل عام ٥٨١ هـ . (١١٨٥ — ١١٨٦م) بمراكش، واحتفل معاصروه بتشييع جنازته ومشى فيها السلطان وفاز بالحسنيين وظفر بما لم يظفر به إلا القلائل، فقد قدره أهل عصره — كما قدرته العصور التالية — حق قدره .

أما مؤلفاته الأخرى فلسنا نعرف عنها إلا رسالتين فى الطب ،على أن قصة «حى بن يقظان» كافية وحدها فى نباهة شأنه وخلود ذكره على مر الأزمان وتعاقب العصور .

أثر ابن طفيل فى عالم القصة

أما أثر ابن طفيل الذى أحدثه بعد موته فى عالم القصة فهو أثر عميق شامل ، يكاد يعجز المنصف عن شرحه وتبيانه، وهو أوسع مجالا وأقوى تأثيراً مما يتصوره الباحث .

ولو أغفلنا فلسفة ابن طفيل كلها ، وبراعته الفذة فى تجلية غوامض العلم وتحليل النزعات الانسانية ، وشرح المذاهب الفكرية الدقيقة ، ثم نظرنا إلى أثر قصته فى القصص العالمى لهالنا الأمر وتعاظمتنا الدهشة. فان حى بن يقظان قد أرضعته ظبية — كما رأى قارئ هذه القصة الخالدة — فلم يجد صاحب قصة «سيف بن ذى يزن» أمامه إلا اقتباس هذه الفكرة فى مستهل تلك السيرة المعجبة ، وسار على غرار ابن طفيل فاختار لسيف بن ذى يزن — بطل قصته — ظبية ترضعه ، ثم ارتقى المؤلف — من الظبية إلى جنية تعطف عليه فترضعه ، فيكتسب من لبانها شجاعة الجن وقوتهم .

وقد أوحت هذه الفكرة إلى مؤلف «طرزان» أن يختار لبطل قصته قردة يشب بينها ويحاكى أفعالها .

فلما جاء «دانيل ديفو» القاص الانجليزى المشهور اقتفى أثر ابن طفيل وسار على منهاجه فى تأليف قصة روبنسن كروزو الذى عاش وحده فى جزيرة نائية مقفرة ، ولم يفته أن يختار لبطل قصته رفيقاً يسعده فى آخر مقامه بالجزيرة ، وهو « جمعة» كما اختار ابن طفيل « أسال » رفيق ابن يقظان الذى التقى به فى المرحلة الأخيرة من القصة .

وقد قرأنا ما يعزز رأينا هذا فى المقدمة الرائعة التى صدر بها « ليون جوتييه » طبعته الأنيقة لقصة «حى بن يقظان» إذ يقول:

« وإن قارئ هذه القصة (حى بن يقظان) ليرى فيها روح ألف ليلة قد اتخذت أسلوباً فلسفياً صوفياً عالياً فى كثير من مواقفها المعجبة ، كما يرى فيها — إلى ذلك — أصل « روبنسن كروزو » التى كتبت على غرارها، ولم يفت مؤلفها أن يقتبس شخصية جمعة»

ولا بأس أن نقبس كلمة موجزة من تلك المقدمة النفيسة ، لنطلع القارئ على رأى أوروبى ناضج فى خطر هذه القصة العربية الفذة ، قال « جوتييه » :

« وإن القارىء ليدهش إذ يرى تعاليم أرسطو مبثوثة فى أثناء هذه القصة ، وقد امتزجت بألوان بارعة من الصوفية العالية والآراء الفلكية والجغرافية والفلسفية ، فى أسلوب عصرى حقيق بالاكبار .

وقد أبدع المؤلف فى أمثلته التى عرض بها إلى دقائق التشريح ، وتحليل التربة والمناخ ، واكتناه أصول الدين والنظم الاجتماعية ، والرموز البارعة التى عبر بها عن دقائق ما وراء الطبيعة ، فلم يدع مجالا لغير الاعجاب بها ، والاكبار لفن مؤلفها وبراعة أسلوبه الجامع ، وإبداعه فى تجلية غوامض الفلسفة وتدرجها ونمائها ، واتجاهاتها المختلفة ، وجمع أطرافها ، ولم أشتاتها المبعثرة فى نسق علمى أخاذ ، يتجلى للقارىء فى ذلك القصص الطبيعى الجذاب . »

أثر قصة روبنسن

على أن قصة روبنسن التى وضعها مؤلفها على غرار ابن يقظان قد أوحت إلى كثير من القصاصين أن يحاكوها ، ويسيروا على نهجها ، وقد أشرنا إلى ذلك فى مقدمة تلك القصة (ص٦) فلنجتزىء منها بما يلى :

« وفى عام ١٧١٩ م . شرع « ديفو » فى تأليف القسم الأول من « روبنسن كروزو » وكان — حينئذ — قد قارب الستين من عمره .

وسار على نهجه كثير من الكتاب ، ولم ينجح — من بينهم — غير كتاب « روبنسن سويسرا » أو الأسرة

السويسرية ، الذى ألفه « رودلف نيس » أستاذ الفلسفة فى جامعة برن ، وقد اختار لقصته أسرة عددها ستة أشخاص ، ينجون من الغرق، فتتألف منهم أسرة سعيدة متعاونة يسودها الوئام والحب ، فتتغلب على العقبات والمتاعب . »

ابن يقظان وجلفر

ولو شئنا أن نتقصى أثر هذه القصة العربية التى أبدعها ابن طفيل فى روائع القصاصين ، لامتد بنا نفس القول ، واحتجنا إلى رسالة مستفيضة ، فلنجتزىء بالاشارة السريعة إلى أثر قصاصنا ابن طفيل فى الكاتب العبقرى « سويفت » مؤلف جلفر التى ترجمناها منذ أعوام ، وقد أظهرها مؤلفها عام ١٧٢٦ فى مدينة لندن ، فأحدثت دوياً هائلا وآثاراً بعيدة المدى .

وإن القارىء الباحث ليدهشه ما يراه فى قصة جلفر من وجوه الشبه ، حتى ليجزم بأن « سويفت » كان يسبح فى كثير من الأجواء التى سبح فيها ابن طفيل، فاذا نظرنا إلى تلك المحادثات المستفيضة التى دارت بين جلفر وبين العمالقة — فى الجزء الثانى — وبين جلفر والجياد الناطقة فى الجزء الرابع ، وهى محاورات تدل على سخط صاحبها على الجنس الانسانى ونقمته من ضلالهم وأفانين غرورهم ، رأيناها تبسيطاً وشرحاً لنغمة « ابن يقظان » وسخطه على ضلال الجنس الانسانى .

وإذا نظرنا إلى فطنة ابن طفيل إلى أهدى أسلوب فى تعلم لغة أجنبية وهو الأسلوب المباشر (Direct method) وهو — فيما نعلم — أول من كشف لنا الستار عنه ، وجدنا «سويفت» يلجأ — فى قصته — إلى تقرير هذا الاسلوب نفسه فى تعلم جلفر لغات الأقزام والعمالقة وسكان الجزيرة الطيارة والجياد الناطقة .

انظر إلى قول ابن طفيل (ص ٦٤) .

« ثم سمع (ابن يقظان) صوتاً حسناً ، وحروفاً منظمة لم يعهد مثلها من شىء من أصناف الحيوان »

وانظر إلى قول سويفت على لسان جلفر:

« ثم دار بين الجوادين حوار طويل ، هو أقرب إلى أن يكون حوار فيلسوفين يريدان أن يتعرفا ظاهرة غريبة لا عهد لهما برؤيتها من قبل . »

وأنظر إلى دهشة جلفر من لغة الأقزام والعمالقة وسكان الجزيرة الطيارة، فانك واجد ما يحقق هذا الرأى ويقنعك بصدق ما ذهبنا إليه .

أما مشكلة الثياب فقد ظهر فيها توخى سويفت نهج ابن طفيل ظهوراً بيناً ، فقد نظر إلى قول ابن طفيل (ص٦٥) :

« ونظر (ابن يقظان) إلى أشكال (أسال) وتخطيطه ، فرآه على صورته ، وتبين له أن المدرعة التى عليه ليست جلداً طبيعياً ، وإنما هى مثل لباسه هو . . الخ »

فاتخذ « سويفت » من هذه اللفتة البارعة نواة لقصته فى بلاد العمالقة كما استفاض فى تبسيط هذه الفكرة وتحليلها فى قصة جلفر مع الجياد الناطقة ، فهو يقول فى الأولى (ص١٢١ جـ ٢)

« وما كاد (العملاق) يرانى حتى دهش، وأخذ قشة صغيرة من الأرض — فى حجم العصا التى نتوكأ عليها فى بلادنا — ورفع بها أطراف ثوبى، وهو يحسبه غطاء وهبتنيه الطبيعة ، كما تهب الطيور الريش — ونفخ فى شعرى ليتبين وجهى بوضوح ، ثم نادى

خدمه وقال لهم — فيما فهمت من دهشته وإشاراته — : « إنه لم ير حيواناً يشبهني في حقوله . . . . ا لخ »

***

وقد شغلت مسألة الثياب هذه أرحب مكان في نفس « سويفت » فلم يكتف بتقريرها في هذا الموضع من كتابه ، بل عاد إليها في الجزء الرابع (ص ٧٩) حين عرض لحوار الجوادين الناطقين ، وتناولها في هذه المرة مسهباً مستفيضاً في شرحها وتحليلها فقال :

« وتكنفني هذان الجوادان ، وأجالا أبصارهما فيّ ، وظلا يطيلان التأمل في وجهي ويديّ زمناً يسيراً .

ودنا مني أحد الجوادين - وهو الأزرق المرقش — فرفع رجليه الأماميتين إلى قبعتي ، وعبث بها ، فنزعتها من فوري ، ودهش الجواد الآخر — وهو الجواد الأحمر — حين أمسك بذيل ثوبي ، فرآه غير ملتصق بجسدي » .

إلى ان قال في (ص١٠٣) من الجزء الرابع :

« وظل السادة الجياد حائرين في أمري ، وهم يحسبون ان ثيابي ليست إلا جزءا طبيعيا من جسمي ، ثم افتضح السر للسيد الجواد بعد ذلك ، فقد وقع لي حادث — لم يكن في حسباني — اضطرني إلى الافضاء إليه بحقيقة امري » .

طبعات القصة وترجماتها

ولو أن هذه القصة قد كتب لها أن تبقى في اللغة العربية وحدها ، لعددنا ذلك من توارد الخواطر ، ووقع الحافر على الحافر — كما يقولون — ولكنها ترجمت إلى أكثر لغات العالم . فترجمها بوكوك — وهو من رجال الكنيسة — إلى اللاتينية ثم نقلها أشويل إلى اللغة الانجليزية .

وقد طبعت هذه الترجمة اللاتينية عام١٦٧١م أول مرة في أوكش ، ثم طبعت مرة أخرى في أكسفورد عام ١٧٠٠ . أما ترجمة «جبو أشويل» فقد طبعها في السابع والعشرين من يناير عام ١٦٨٦ م في لندن .

وقد طبعت رسالة «حيّ بن يقظان» بالقاهرة والقسطنطينية عام ١٢٥٥ ﻫ . ثم طبعها « ليون جوتييه » بالجزائر عام ١٩٠٠ م ، كما طبعت في سرقسطة في نفس هذا العام . وترجمها إلى الانجليزية — عدا أشويل — كاتب يسمى « سيمون أوكلي » وطبعت في لندن . وترجمت إلى الهولندية عام١٦٧٢ وأعيد طبعها في نوتردام عام ١٧٠١ م . ونقلها عن — نسخة بوكوك اللاتينية — إلى الالمانية بريتوس ، وظهرت في فرانكفورت عام ١٧٢٦ .

ثم ظهرت ترجمات ألمانية أخرى عام١٧٨٣ بأقلام أيشهورون وموتك داوبرج ، وظهرت ترجمة أسبانية بقلم «فرنسيسكو بوجي» .

وظهرت لها ثلاث طبعات في مصر : إحداها بمطبعة الوطن ، وثانيتها بمطبعة وادي النيل ، وثالثتها بالمطبعة الخيرية .

وقد ترجمت هذه القصة إلى العبرية ، وكتب عن مؤلفها كاتب اسباني اسمه بونس براج رسالة عنوانها : ابن طفيل — حياته وآثاره — وقد طبعها عام١٩٠٠م ونوه بروكلمان بهذه الرسالة في « تاريخ الآداب العربية » .

وهناك قصة فارسية عنوانها « سلامان وأسال » ألفها « جامي » الفيلسوف الفارسي يوحي من قصة ابن طفيل التي ترمز إلى

اشتباك العقل الانسانى بعالم المحسوسات . وقد ترجمت القصة الفارسية إلى الفرنسية وطبعت فى باريس عام ١٩١١ .

ولو شئنا أن نتقصى هذه الترجمات لطال بنا الكلام ، فلنجتزئ بهذا القدر .

ترجمة أشـــويل

على أننا نكتفى بالاشارة إلى ترجمة أشويل التى نقلها عن اللاتينية ، وأشار فيها إلى أثر مترجمها پوكوك الذى كان له الفضل الأول فى نقلها إلى اللاتينية ، وقد وضع لها عنوان : « أسرار الحكمة الشرقيـــة » ثم جاء « أشويل » فأطلق عليها عنوان : الأمير الهندى ، أو الفيلسوف الذى فلسف نفسه . وطبع على غلافها ما يلى :

« كتب هذه القصة « أبو جعفر بن طفيل » الفيلسوف المسلم المعروف ، وقد أوضح فى أثنائها الخطوات والمدارج التى يرتقى العقل الانسانى فى معارجها ، وكيف تهدى دقة الملاحظة والفطنة والمرانة إلى تلك النتائج العلمية ، وتصل بصاحبها إلى أبواب المعارف الطبيعية ، وتكشف له قوى الطبيعة العالية ، ولا سيما آثار القوة الالهية وما يتعلق بالعوالم الدنيوية الأخرى . »



*

*

فهرست

تمهيد

الفصل الأول

الفصل الثانى

*

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الخاتمة

مطبعة المعارف ١/٣٠٠٠/٦/١٩٣٥